خ.ل بورخيس

المرايا والمتاهات

قصص

ترجمة: ابراهيم الخطيب

مصادر النصوص المترجمة

نُشرت «ملكان ومتاهتان» و«بحث بن رشد» و«الانتظار» و«الظاهر» ضمن كتاب « El Aleph » طبعة Alianza – Emecé (مدريد 1978). ونشرت «مكتبة بابل» و «پيير مينار كاتب «الكيخوطي»» و«حديقة السبل المتشعبة» و«الخرائب الدائرية» و«موضوعة الخائن والبطل» ضمن كتاب « Ficciones » طبعة Alianza – Emecé (م 1984). ونُشرت «الآخر» و«كتاب الرمال» ضمن كتاب « El Libro de Arena » طبعة Alianza – Emecé (1984) الصادرة بالمكسيك. ونُشرت «الصدع المقنع، حكيم مرو» و«حكاية الحالمين»، ضمن كتاب « Historia Universal de la Infamia » طبعة Alianza – Emecé (م 1983). ونُشرت مقالة «بورخيس وأنا» ضمن كتاب « El Hacedor » طبعة Alianza – Emecé (م 1984). أما «نبذة بيوغرافية» فنشرت ضمن آثار بورخيس الكاملة « Obras Completas » طبعة Emecé (1974) الصادرة ببوينوس آيرس (الأرجنتين).

تمَّ نشرُ هذَا الكِتاب ضِمْن سِلسِلة
نصوص أدبية

الطبعة الأولى 1987
جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع القانوني : 1987/622

مقدمة

عالم بورخيس (1899 ـ 1986)

[وُلِدَ بورخيس في منزل بشارع تُوكُومَانْ (بوينوس آيريس)
سنة 1899، من أب كان يعمل محامياً، ويحاول الأدب... إلخ].

لا تستطيع المعلوماتُ المعروفةُ عن حياة خُورخِي لُويسْ بُورْخِيسْ[1] أن تُبَرِّرَ لنا السبب في كونه خَلَقَ آثاراً أدبية لا نظير لها. وربما كانت أكثرُ خصائص كتاباته إدهاشاً هو ردُّ فعلها العقلي المتطرف على كل فوضى الواقع المباشر وعرضيتِهِ، وإلحاحها الجذري على تمزيق الصلة بالعالم المعطى، واقتراح عالم بديل. لقد استعمل بورخيس ذهنه الغريبَ الموهبةِ لصياغة نظامٍ، وذلك عن طريق ما سماه (ييتس) بـ «آثار العقل التي لا تشيخ». وكان رَيْبِيّاً أكثر من أي كاتب آخر حول القيمة النهائية للفكر المحض والأدب الخالص. غير أنه جاهد في تحويل هذه الرَّيْبِيَّةِ إلى منهج ساخر، يُقِيمُ من عدم الاعتقاد منظومةً جماليةً، حيث ما يهم ليس الأفكار في ذاتها وإنما أصداؤُها وما توحي به.

إلى غاية سنة 1930، كان الشعر، بالنسبة لبورخيس، واسطةَ الخلْقِ الأساسيةَ.[2] وخلال هذه الأعوام اكتفى بالبحث عن التعبير في صورٍ غنائيةٍ

1) يمكن، في هذا الصدد، مراجعة «النبذة البيوغرافية» التي كتبها بورخيس عن نفسه بضمير الغائب سنة 1974 متخيلاً أنها ستُنشر في موسوعة أمريكية ـ لاتينية، لا وجود لها حالياً، سنة 2074. أنظر ملحق 2.

2) نشرت دار غاليمار Gallimard للنشر الترجمة التي أنجزها (ن. إينارْا) لآثار بورخيس الشعرية الكاملة.

هادئة، كانت تلبيةً أولى للحاجة إلى خلق أدب وطني جديد كما يراه هو. إلاّ أن الأعوام من 1930 إلى 1940 حملت تحوُّلاً عميقاً إلى عمله وتفكيره. فمع أن بورخيس لم يفقد أبداً انفعاله الأصيل بمكوِّنَاتِ الواقع المحلي، إلاّ أنه كفَّ عن إجلالها وطنياً باعتبارها الحواجز الوحيدة ضد الفوضى، وأخذ يضعها داخل سياق سيروراتٍ عالميةٍ واسعة. في هذا الإطار يمكن اعتبار المدينة الكابوسية في قصته القصيرة «الموتُ والبوصَلَة»[3] صياغةً أسلوبية مرئيةً لمدينة بُوينُوسْ آيْرِيسْ التي لم تعد، كما كانت في أشعاره، مكاناً مثالياً بل أصبحت سياقاً فضائياً لمأساة الذِّهْنِ البشري. هكذا تحولَ الشاعرُ الشّاب والمتعلِّم إلى كاتب متبحِّر، يقضي ساعات العزلة الكثيرة في قراءة أشد الآثار تنوعاً وغرابة، سواء تعلق الأمر بالآثار الأدبية أو الفلسفية، ويُصَحِّحُ مخطوطاتِه بدقة هوسية. وتحت تأثير فقدانه التدريجيّ للبصر، والمشاكل التي كانت أوروبا تتخبط فيها خلال الثلاثينات والأربعينات (والتي كان لها انعكاسٌ مباشر على الأرجنتين)، أخَذَ بورخيس يبحث عن خلق عالم قصصي منسجم مصدره الذكاء والوعي. ويمكن القول بأن قصصه الميتافيزيقيّةَ وكذا ابتكاراته الأخرى، التي جُمِعَتْ في مجموعاته «قصص» Ficciones (1945)، و«الألِف» EL Aleph (1949) و«كتاب الرمال» EL Libro de arena (1975)، تؤكد على الوظائف التحليلية والتخيُّلية التي تَجَلَّتْ من قبلُ في صورةٍ منفصلةٍ خلال مقالاته وأشعاره، وتَلْتَحِمُ حالياً لإنتاج شكل معبِّر عن فكره يتسم بكامل القوة والتعقيد.

تهتم قصص بورخيس دائماً بسيرورات البحث التي تؤدي إلى الاكتشاف وعمق النظر : وتُنْجَزُ هاتان الغايتان أحياناً بصورة تدريجية، وأخرى بشكل مفاجئ، لكنهما تُنْجَزَانِ دائماً تحت تأثير فعل محيِّر. يتعلق الأمر، في الواقع، بحكايات فانطاستيكية، تَتَّسِمُ بالمغالاة، بَيْدَ أنها لا تكتفي أبداً بالتخييل في معناه البسيط والسهل. ذلك أن عمق النظر الذي تُوَفِّره هو عُمْقُ نظرٍ ساخرٍ وشجيّ : إنه إحساس مؤلم بحدود لا مفر منها، تقف حاجزاً دون أي طموح. إن بعض هذه السرود القصصية (على سبيل المثال : «پيير مينار، كاتب الكيخوطي»[4]) يمكن تسميته «أشباه ـ مقالات» حيث تكون الحبكة تلاعباً

3) إحدى قصص مجموعة « Ficciones »، طبع Emecé / Alianza.

4) نفس المصدر السابق.

بالخَلْق والنقد والكتابة. غير أن جميع قصصه، ومهما كان شكلها الظاهر، تتوفر على نفس البُعْدِ النَّقْدِي الذاتي. وإلى جانب «أشباه ـ المقالات» هذه، وهي تركيباتٌ عموديةٌ، هناك مَحْكِيّاتٌ أفقيةٌ على نحو ما نجده في قصص المغامرات أو البحث في الجريمة (وهما نمطا القصة المفضلين عند بورخيس). وفي هذا الإطار نجد التحولات غير المنتظَرة التي تُضَلِّل المتوقَّع، وتتكشف الوقائع الخفية من خلال آثارها المتباينة. فعلى نحو ما فعل (تشسترتون) من قبلُ، حين ابتكر قصص «الأب بْرَاوْنْ» واسطة للتعبير عن لاهوتيته الكاثوليكية، استعمل بورخيس تقنية اللغز، وحبكة التكرار اللا متناهي، وتأثير المفاجأة في الأدب، لإنجاز الدهشة إزاء العالم. إن أشكال بورخيس تذكِّر، غالباً، بأشكال (سويفت) : نفس الجدية وسط اللا معقول، ونفس الدقة في التفاصيل. وللبرهنة على اكتشاف مستحيل، يتبنى بورخيس نغمة الكاتب المتبحِّر مازجاً بين الكتابات المتخيَّلة والمصادر الحقيقية العالمة. وعوض تحليل كتاب حقيقي، قد يكون مملاًّ، فإنه يعمد إلى تحليل كتاب لم يوجد قط.

لقد ادّعى بورخيس مرةً أنّ كل الأدب الفانطاستيكي يقوم على أربع تقنيات أساسية هي : الكتاب داخل الكتاب، وعدوى الواقع بالحلم، والسفر في الزمن، والمضاعفة. والملاحظ أن تلك هي موضوعاته الجوهرية أيضاً : إشكالية طبيعة العالم، والمعرفة، والزمن، والذات. وفعلاً، فالتفرقة المعتادة بين الشكل والمحتوى تختفي تلقائياً وبصورة حاسمة من كتابات بورخيس القصصية، مثلما تختفي التفرقة بين العالم والقارئ. ونجد في قصة «موضوعة الخائن والبطل»[5] أن اكتشاف الكاتب لقصته، واكتشاف (نُولانْ) لخيانة (كِيلْبَاتْرِيكْ)، واكتشاف (رْيَانْ) لذلك الاستشهاد الغريب ـ لَيست سوى معرفة واحدة بالغدر المظلم والخيبة الخالقة. هكذا ننتقل إلى مجال كتابة حيث الحدث والمتخيَّل، والواقع واللا واقع، والكل والجزء، والسامي والسافل، ملامحُ متكاملةٌ لنفس الكائن المتواصل. إن العالمَ كتابٌ، والكتاب عالمٌ، وكلاهما لُغْزٌ متاهي مغلق، وُضِعَ كي يفهمه الإنسان ويساهم فيه. ويجب أن نبادر إلى القول بأن هذه الوحدة الذهنية يتم إنجازها، بالضبط، بواسطة تقابل الأضداد.

5) نفس المصدر السابق.

يعترف بورخيس، دون تردد، بمصادره واقتباساته لأنّه لا أحد، في رأيه، يستطيع أنْ يدّعيَ الأصالةَ في الأدب : فكل الكُتّابِ هم، تقريباً، مُتَرْجِمُون ومُعلّقون على أنماط سابقة الوجود. لقد قارنه النقاد بـ (كافكا)، الذي كان أولَ المترجمين له إلى الإسبانية. ومن المؤكد أننا نستطيع أن نجد تأثير الكاتب التشيكي في بعض قصص بورخيس،[6] بيد أن التشابه إنما يكمنُ في فحص الراوي لموضوع مستحيل بطريقة مُؤَلِّرة وغيرِ متلائمة، وكذا في فكرة وجود كَوْنٍ غير متناهٍ، قائم على سُلّمية معينة. غير أن الفرق بينهما هام : ذلك أن (كافكا) يكتب روايات، بينما يعترف بورخيس جهاراً بأنه يعجز عن صنع ذلك.[7] فأشكاله البالغة الضآلة (والشبيهة بالمنمنمات) هي تحقيق حاد لمبادئ (پُو) الشهيرة حول وحدة الأثر والإيجاز. «إن كلمة «حكاية» Cuento لها الحق في الوجود، لأن كل تفصيلٍ في هذا الشكل إنما وُضِعَ بمراعاة البناء العام. وهذا التطور الصارم يمكن أن يكون ضرورياً وبديعاً في نص قصير، غير أنه يتجلى في الرواية مُمِلاً...».[8] إن كل أعمال بورخيس تتضمّنُ مفاتيحها الخاصةَ في شكل توازٍ واضح مع كتاباته غيرِ القصصية، وإحالاتٍ صريحة إلى سياق أدبي أو فلسفي محدد إخْتَار أن يضع نَفْسَه فيه. لقد لاحظ بورخيس بأن لائحة كتابات «پيير مينار» ليست اعتباطيّةً، وإنما تُقَدّمُ «رسماً تَوْضيحيّاً لتاريخه العقلي» وتتضمن مسبقاً طبيعة مهمته «المستترة». وتجب الإشارةُ إلى أنّ مجموع «هوامش» قصصه، وحتى تلك التي تُذَيّلُ بكلمة «ملاحظة الناشر» هي هوامش من صياغة الكاتب وتشكل جزءاً لا يتجزأ من الآثار التي أُدْرِجَتْ فيها. ومن المؤكد أن الاستئناس بالأفلاطونية الجديدة والمذاهب المتصلة بها سوف يُبيّن اختيارات بورخيس ونواياهُ، بيد أنّ الاستمتاع التام بكتاباته سابق على تلك التأويلات

6) لقد وصف، هو نفسه، قصته «مكتبة بابل» بأنها قصة كفكاوية. ومن المعلوم أن بورخيس كان يذيّل الكثير من قصصه بذكر مصادرها لدى كتاب آخرين : راجع، على سبيل المثال، مجموعته «الألف» (طبعة Emecé / Alianza). وكتب في «مدخل» طبعة 1954 من كتابه «التاريخ الكوني للفضيحة» قائلاً : «إن هذه الصفحات هي لعب غير مسئول يقوم به امرؤ خجول لم يجد الشجاعة الكافية لكتابة حكايات فتلهّى بتزييف أو تحوير قصص الآخرين (دون عذر جمالي في بعض الأحيان)».

7) سُئِلَ : لماذا لم يفكر في كتابة رواية ؟ فأجاب : «لأنني عاجز عن كتابتها. أنا كسول والرواية الواحدة بحاجة إلى العديد من وسائل الربط. فإذا كانت هنالك وسائل ربط زائدة عن الحاجة في ثلاثٍ من صفحاتي، ففي ثلاثمائة صفحة لن يكون هناك غير ذلك». أنظر : E. Rodriguez Monegal : « Borgés » Coll. « Ecrivains de Toujours ». Seuil, 1978.

8) نفس المصدر السابق.

وغير متعلق بها. ذلك أن مهارة هذا الكاتب كراوٍ، وسحره في استيعاب أشدّ التأثيرات قوة بواسطة اقتصادٍ دقيقٍ للوسائل، هما أعظمُ وأكثرُ أهمية من براعته العقلية.

يمكن لقصص بُورْخِيس أن تبدو أشبه بألعاب شكلية، أو تجريبات رياضية، خالية من أي حس بالمسئولية الإنسانية ولا صلة لها حتى بحياة الكاتب - بيد أن العكس أيضاً صحيح. ذلك أن إلحاحه المثالي على المعرفة والنظر العميق (اللذين يعنيان العثور على نظام والتحوُّل إلى جزءٍ منه) له دلالة خُلُقية محددة، وإنْ كانت هذه الدلالة، بالنسبة له، مزدوجةً : فَخَوَنَتُهُ هم دائماً أبْطالٌ على نحو ما. وكل أوضاعه القصصية، وشخصياته، هي، في العمق، أوضاعٌ وشخصيات أُوتو بيوغرافية، وانعكاسات أساسية لتجاربه ككاتب، وقارئ، وكائن إنساني (مُنْقَسِم، حسب عبارته : «بورخيس وأنا»). إنه الحالم الذي يعرف أنه المحلُوم به،[9] ومفتش الشرطة الذي يُخَيِّبُهُ النموذج الخفي للجرائم،[10] وابنُ رُشْد الذي تعكس جهالتُه جهالةَ الكاتب في رسم صورةٍ شخصيةٍ له.[11] غير أن كلَّ واحدٍ من هذه الأخطاء الذاتية يَتِمُّ تحويله إلى ظَفَرٍ فني نادر المثال. على أنّه يمكن التساؤل عن جدوى كل ذلك. وهنا يبدو أنّه لا مَفَرَّ من القيام بمقارنةٍ بين بُورْخيس و(مرڤانتيس)، رغم عدم التشابه الظاهر بينهما (وإن كانَ اسْمُ هذا الأخير لا يَرِدُ اعتباطاً في قصص الأول ومقالاته).[12] إن قصص بورخيس، على نحو قصة «ضُون كِيخُوطِي» الهائلة، تتولد من مواجهة عميقة بين الأدب والحياة - هذه المواجهة التي ليست فقط المشكل المركزي لكل أدب، وإنما المشكل المركزي لكل تجربة إنسانية.

□□□

إن الاعتراف ببُورخيسْ كأحد كبار كُتّاب عصرنا (وإن كان متأخراً)، قد أتى من أوروبا وليس من مَسْقِط رأسه بأمريكا الجنوبية. ولعل مشاركته لصَامُوِيل بِيكيتْ في جائزة «فُومِنْتُورْ» سنة 1961، هي أبلغ دلالة على ذلك الاعتراف. أما

9) إشارة إلى قصة «الخرائب الدائرية».

10) إشارة إلى قصة «الموت والبوصلة».

11) إشارة إلى قصة «بحث ابن رشد».

12) راجع «پيير مينار كاتب الكيخوطي». هنا، وكذا «أمثولة سرڤانتيس والكيخوطي» و «مشكلة» في كتاب بورخيس « EL HACEDOR ».

في الأرجنتين، وإذا استثنينا إعجاب فئةٍ قليلةٍ العدد نسبياً، فقد انتُقِدَ بُورْخِيسْ دائماً ككاتب «غير أرجنتيني»، وكمقيم مستغلق في برجه العاجي (وإن كانت معارضته غير السياسية لخُوَانْ پيرُونْ قد كلفته مطاردات ومشاقّ كثيرةً أيام الديكتاتور). وحسب ما يبدو فإن العديد من مواطنيه كانوا حريصين على أن يكون كُتّابهم مُخبرين صُرحاء عن المشهد الواقعي الوطني، وما كانوا ليغفروا لبُورْخِيسْ ما شكّل، بالضبط، إحدى أعظم فضائله : جهده المتفوّق في تحويل ظروفه الحياتية الخاصة إلى فن عالمي وأشكال بالغة الدقة. لقد لاحظ الروائي الأرجنتيني إرْنيسْطُو سَابَاطُو، سنة 1945، بأن بُورْخِيسْ «لو كان فرنسياً أو تشيكياً، لتَدَافَعَ الأرجنتينيون على قراءته، بحماس، في ترجمات رديئة». وليس من شك في أن عدم وجوده ضمن لائحة كُتّاب الفرنسية قد ساهم في إبقائه مجهولاً لدى الناطقين بالعربية، خصوصاً في المغرب العربي حيث من النادر أن يُعطى كاتب بالإسبانية القيمة التي يستحقها. إننا نرجو أن تساعد هذه السلسلة المنتقاة من قصص بُورْخِيسْ على تصويب هذه النظرة، ومن ثَمّ على إنصاف رأي رُونِيه إيتْيَامْبْلْ الذي وجد في هذا الكاتب نموذجاً لتكامل الفكر الكوسْمُوپوليتي، مثلما وجد في آثاره التعبير المدهش عن قلق الإنسان المعاصر إزاء الزمن، والمكان، واللا متناهي.

إبراهيم الخطيب

مَلِكَان وَمَتَاهَتَان

يحكي رجال جديرون بالثقة (والله أعلم) أنه كان في الأيام الأولى ملك من جزر بابيلونيا دعا مهندسيه المعماريين وسَحَرَتَهُ وأمرهم ببناء متاهة محيِّرة، دقيقة الصنع إلى درجة أن الشجعان الأكثر حيطة لا يغامرون بدخولها وأن الداخلين إليها ضائعون لا محالة. وأحدث هذا البناء ضجة، نظراً لأن البلبلة والإدهاش عملان من أعمال الله، وليس للبشر فيهما نصيب. وبعد مُضي زمن، جاء إلى بلاط ملك بابيلونيا ملكٌ من ملوك العرب، فعمل الأول (سخرية من بساطة ضيفه) على إدخاله المتاهة، حيث تاه مهاناً ومرتبكاً إلى حين حلول المساء. وإذ ذاك استدر العربي العون الإلهي، فعثر على الباب ولم تنطق شفتاه بأية شكوى. لكنه قال لملك بابيلونيا بأنه يملك، في جزيرة العرب، متاهة أفضل، وأنه سيريه إياها، بفضل الله، ذات يوم. ثم عاد إلى جزيرة العرب، فجمع قواده وضباطه وأتلف ممالك بابيلونيا. وقد حالفه التوفيق في ذلك إلى درجة أنه هدم قصورها وقهر سَكانها وأسر ملكها نفسه. أركبه فوق جملٍ سريع وأخذه إلى الصحراء. وبعد مرور ثلاثة أيام وهما راكبان، قال له : «آهٍ يا ملك الزمان وماهية العصر وعدده ! لقد أردت لي، ببابيلونيا، أن أضيع في متاهة من نحاسٍ كثيرة السلالم، والأبواب والجدران؛ والآن يشاء القدير أن أعرض عليك متاهتي حيث لا سلالم تُصْعَد، ولا أبواب تُغْصَبُ، ولا أروقة مُتْعِبَة تُعْبَر، ولا جدران تمنعك من السير».

ثم فكّ قيوده، وتركه وسط الصحراء، حيث مات جوعاً وعطشاً. والمجد للحي الذي لا يموت.

حِكَايَةُ الحَالِمَيْن

يروي المؤرخ العربي الإسحاقي هذه الواقعة :

«يحكي رجال ثقات (والله وحده العليم القدير الرحمان الذي لا تأخذه سنةٌ ولا نوم) أنه كان بالقاهرة رجل ذو ثروات، وكان مبسوط اليد متحرراً فأضاعها جميعاً عدا بيت أبيه. واضطر إلى العمل لكسب قوت يومه، فأُرْهِقَ حتى فاجأه النوم ذات ليلة تحت تينة بحديقته، فرأى في المنام رجلاً مُبتلاً يُخْرج من فمه قطعة نقود من ذهب ويقول له : «ثروتك في فارس بأصفهان، فاذهب وابحث عنها». استيقظ الرجل عند الفجر الموالي، وشرع في السفر الطويل، فواجه أخطار الصحاري، والسفن، والقراصنة، وعَبَدة الأوثان، والأنهارِ، والسباع، والرجال. ووصل إلى أصفهان أخيراً، لكن الليل داهمه عند سورها فاضطجع للنوم في باحة مسجد. وكانت بجوار المسجد دارٌ، فشاءت حكمة الله أن تعبر المسجد عصابةٌ لصوص وتدخل الدار. واستيقظ القومُ النائمون بفعل جلَبة اللصوص، واستغاثوا، وصرخ الجيران أيضاً إلى أن اتجه ضابط عسس تلك المنطقة هو ورجاله إلى المكان، ففر اللصوص بجلودهم عبر السطح. أمر الضابط بتفتيش المسجد، فعُثِرَ فيه على الرجل القادم من القاهرة، وأُشْبِع ضرباً بهراوات الخيزران حتى كاد أن يَهْلِك. بعد يومين، استعاد الرجل وعيه بالسجن، فاستدعاه الضابط وقال له : «منْ أنْتَ ومن أي أرض جئت ؟». أعلن الآخر : «إنني من مدينة القاهرة الشهيرة، واسمي محمد المغربي». سأله الضابط : «ماذا أتى بك إلى فارس ؟»، فاختار الآخر جانب الصراحة وقاله له : «أمرني رجل في المنام أن آتي إلى أصفهان، لأن بها ثروتي. أنا الآن في أصفهان وأرى أن الثروة التي وعدني بها قد تكون الضربَ الذي أشبعتني إياه».

لم يتمالك الضابط نفسه، إزاء هذا الكلام، من الضحك حتى برزت أضراس رُشده، ثم ختم قائلاً : «أيها الرجل الأخرق السريع التصديق، لقد حَلِمْتَ ثلاث مرات بدار في مدينة القاهرة، في قاعها حديقة، وفي الحديقة ساعة شمسية، ووراء الساعة الشمسية تينةٌ، ووراء التينة عينُ ماء، وتحت عين الماء كنزٌ. بيد أني لم أصدّقْ هذه الأكذوبة. أما أنت، يا نسلَ نكاح البغلة والشيطان لا ريب، فخرجت تائهاً من مدينة إلى مدينة، لا يدفعك إلاّ إيمانك بحلمك. لا أريد أن أراك بعد الآن في أصفهان. خذ هذه النقود وامض...».

أخذ الرجل النقود، وعاد إلى وطنه. ومن تحت عين ماء حديقته (التي هي عينُ حُلْم الضابط) أخرج الكنزَ الدفين. هكذا باركه الله وأجزاه وأثنى عليه. إن الله كريمٌ، لا تدركه الأبصار.»

(من كتاب «ألف ليلة وليلة»، الليلة 351)

كِتَابُ الـرَّمْـل

...Thy rope of sands...
Georges Herbert (1593 – 1633)

يتألف الخط من عدد لا حصر له من النقط؛ والسطح من عدد لا حصر لـه من الخطوط؛ والحجم من عدد لا حصر له من الأسطح؛ والحجم الهائل من عـدد لا حصر لـه من الأحجـام... قطعاً ليست هـذه more geometrico بـأفضل طريقـة للشروع في سرد خرافتي. لقـد غـدا من الشائع اليَوْمَ التأكيدُ على أن كل خرافة خارقة هي خرافة حقيقية؛ ومع ذلك فخرافتي حقيقية.

إنني أعيش بمفردي في الطـابق الرابع من عمـارةٍ بشـارع بيلْكُرَانُو. ومنـذ حـوالي بضعـة أشهر، عند نهاية الظهيرة، سمعت طرقاً ببابي. فتحتُ فـدلف شخص مجهول. كـان رجلاً طـويل القـامـة، ذا ملامحَ مَمْحُوةٍ أو ربمـا كـان قِصَرُ نظري السبب في رؤيتي لهـا على هـذا النحـو. وكانت هيأته، في مجموعها، تعكس فقراً وقوراً. كان يرتدي لوناً رمادياً ويمسك بيده حقيبـة. وشعرت للتّو أنـه كـان أجنبيـاً. حسبت للـوهلـة الأولى أنـه رجـل مُسِنّ؛ ثم أدركت أنني كنت مخدوعاً بشعره القليل الأشقر المائل إلى البياض، كشعر الأسكندنافيين. وخلال حديثنـا، الـذي لم يستغرق ساعةً، علمت أنه ينتمي إلى جزر الأُورْكَادْ.

قدّمتُ له مقعداً. وقبل أن يتكلم الرجل، ترك بعضاً من الوقت يمضي. لقـد كـان ينبعث منه نوع من الحزن، شبيه بالحزن الذي ينبعث مني اليومَ. قال :

إنني أبيع الكتاب المقدّس.

أجبته، ليس دونما حذلقة :

- توجد في هذا البيت نسخ إنكليزية من الكتاب المقدس بما فيها الطبعة الأولى، طبعةُ جَانْ وِيكْلِيفْ. لدي أيضاً طبعة كِيرْيَانُو دِي ڤَالِيرَا، وطبعة لُوثِرْ، التي هي أكثر الترجمات سُوءاً من وجهة النظر الأدبية، ونسخة باللاّتينية من «المُيَسَّر». كما ترى، ليست نُسخ الكتاب المُقَدَّس ما ينقصني بالضبط.

وبعد صمت، أردف الرجل :

- لستُ أبيعُ نسخ الكتاب المقدس فقط. يمكنني أن أعرض عليك كتاباً مقدساً قد يهمك. لقد اشتريتُه عند تخوم بِيكَانِيرْ.

فتح حقيبته ووضع الشيء على الطاولة. كان مجلداً من القَطْعِ الصغير، مسفّراً بالنسيج. ويبدو أن العديد من الأيدي قد تداولته دون شك. تفحصته؛ فأدهشني وزنه الشّاذ. قرأت على رأس الغلاف Holy Writ وفي أسفله Bombay. قلت ملاحظاً :

- لاَبُدَّ أنه ينتمي إلى القرن التاسع عشر.

فكانت الإجابة :

- لا أدري. لم أدر ذلك أبداً.

فتحته بشكل عشوائي. كانت الحروف مجهولة لدي، وكانت الصفحات (التي بدت لي مُتْلَفَةً بما فيه الكفاية، وفقيرةَ الطباعة) مطبوعةً على عمودين على نحو ما يُطبع الكتاب المقدس عادة. كان النص متزاحماً، ومرتباً في شكل آيات، بينما وُضعت في الزوايا العليا للصفحات أرقام عربية. ولقد أثار انتباهي أن الورقة الزوجية العدد تحمل، مثلاً، رقم 40514، والفردية العدد، التي تتلوها، تحمل رقم 999. قلبت هذه الصفحة، فإذا الترقيم على قفاها يتضمن ثمانية أرقام. كانت الصفحة مُزَيَّنَةً برسم صغير، من قبيل ذلك الذي نعثر عليه في المعاجم : مِرساةً رسمت بالريشة، كما لو من طرف طفل عديم المهارة.

إذ ذاك قال لي الرجل المجهول :

- تأمّلها جيداً، فإنك لن تراها قط.

لقد كان في هذا التأكيدِ ما يشبه التهديدَ، لكن ليس في الصوت.

عينت موقع الصفحة في الكتاب بدقة ثم أغلقت المجلد. أعدت فتحه توّاً وبحثت عن رسم المِرساة، صفحةً بعد صفحةٍ، دون جدوى. ولكي أحجبَ دهشتي قلت :

- ألا يتعلق الأمر حقاً بترجمة للكتاب المقدس إلى إحدى اللغات الهندية ؟

أجابني :

- كلا.

ثم أضاف، خافضاً صوته كما لو كان يَأْتَمِنُني على سر :

- لقد اشتريتُ هذا المجلد في قريةٍ من قُرى السهل، مقابل بضع روبيات ونسخةٍ من الكتاب المقدس. لم يكن مَالِكُه قارئاً، وأفترضُ أنه حَسِبَ كتابَ الكتبِ هذا تميمةً. كان ينتمي إلى الطبقة الشعبية الأكثر انحطاطاً وما كان بالإمكان السير في ظله دون انْعِدَاء. لقد قال لي بأن كتابه يُسمى كتابَ الرمال نظراً لأن الكتاب والرمل، كلاهما، لا مبتدأ لهما ولا نهاية.

وطلب مني أنْ أبحثَ عن الصفحة الأولى.

وضعت يدي اليُسرى على الغلاف، وفتحت السِّفْر بإبهامي يكاد يلتصق بالسبابة. بذلت جهداً دون جدوى : فبين الغلاف واليد كانت هناك دائماً بعض الصفحات، التي تبدو كما لو كانت تَنْبَجِسُ من الكتاب.

- والآن ابحث عن الصفحة الأخيرة.

أَخْفَقْتُ مُجدَّداً، فَتَمْتَمْتُ بصوت لم يكن بعد صوتي :

- هذا غير ممكن.

وبصوتٍ هامس دائماً، قال لي بائع الكتب المقدسة :

- غير ممكن ومع ذلك فهو ممكن. إن عدد صفحات هذا الكتاب لا حصر له تماماً. فلا صفحةَ منه الأولى، ولا صفحةَ منه الأخيرة. ولست أَفْقَهُ لماذا رُقِّمتْ بهذا الشكل الاعتباطي. ربما بغية الإيحاء بأن مكونات سلسلة لا نهائية يمكن أن تُرقَّم كيفما اتفق.

ثم أضاف، كما لو كان يُفكِّر بصوتٍ مرتفع :

- إذا كان الفضاءُ لا حصر له، فنحن في أية نقطةٍ منه. وإذا كان الزمن لا حصر له، فنحن في أية نقطةٍ منه كذلك.

أزعجتني تأملاتُه، فسألته :

- أنت متدين، ولا ريب ؟

- نعم، أنا كالثاني. إن ضميري مطمئن، فأنا متيقّن أنني لم أخدع البدوي حينما أعطيتُه كلمةَ الربِّ مقابل كتابه الشيطاني.

أكدت له أنه لم يكن ليُلاَم على صنيعه وسألتُـه ما إذا كـان مجرد عـابر لهـذه الأراضي. أجابني بأنه يفكر في العودة قريباً إلى وطنـه. عنـدئـذ علمت أنه كـان اسكتلنـدياً من جُزر الأورْكَاذْ فقلت له بأنني أحبُّ اسْكُتْلَنْدَا حباً شخصياً بسبب عشقي لسْتِيفِنْسُونْ وهُيُومْ.

وصَحَّح :

- ورُوبي بَارْنْس.

وفيما كنا نتحدث، واصلتُ تصفّحي للكتاب اللانهائي.

سألته متظاهراً باللا مبالاة :

- هل تنوي إهداء هذه العينة الغريبة إلى المتحف البريطاني ؟

أجابني :

- كلا. بل أعرضُه عليك.

وحدد ثمناً مرتفعاً باهظاً.

أجبته، بصراحـة، أن هـذا المبلغ لم يكن بمستطـاعي ثم أغرقت في التفكير. وبعـد بضع دقائق، كنت قد وضعت مخططي. قلت له :

- اقترح عليك مبـادلـة. لقـد حصلتَ على هـذا السِّفر مقـابل بضع روبيـات ونسخـة من الكتاب المقدس؛ وأنا أعرضُ عليك مرتب تقاعدي الـذي استلمتـه حـاليـاً ونسخـةً من الكتـاب المقدس لوِيكْلِيفْ مطبوعة بحروف قوطية، كنتُ ورثْتُها عن آبائي.

فهمس :

A black letter Wiclef!.

قصـدتُ غرفـة نـومي وأحضرتُ لـه المـال والكتـاب. تصفّـح هـذا الأخير وفحص صفحـة العنوان بحماس المولع بالكتب.

قال لي :

- صفقة ناجزة.

دهشت لكونه لم يساوم. ولم أُدرِك إلا فيمـا بعـد أن الرجل قصـدني وقـد عقـد العزم أن يبيعني الكتاب. ودون عَدّ الأوراق النقدية، وضعها في جيبه.

تحدثنا عن الهند، وعن الأُورْكَاذْ، وعن الـ Jarls النّرويجِيِّينَ الـذين حكموا هـذه الجزر. وحينما انصرف الرجل، كان الوقت ليلاً. إنني لم أرَهُ بعد ذلك، ولستُ أعلم له اسماً.

كنتُ أنوي وضع كتاب الرمال في الثغرة التي تركها كتاب وِيكْلِيفْ المقدس؛ بيـد أنني قررت في النهاية إخْفَاءَهُ وراء أسفار «ألف ليلة وليلة» غيرِ المتجانسة.

استلقيتُ لكنني لم أنَم. وحوالي الثالثة أو الرابعة صباحاً أوْقَدتُ النور. بحثت عن الكتاب المستحيل وشرعتُ في تصفحه، فرأيتُ بإحدى الصفحات رَسْمَ قناع، وكانت الزاويةُ تحمل رقماً، لست أدري الآن ما هو، مرفوعاً إلى قوة تسعة.

لم أكشفْ كنزي لأحد. ولقد انضاف إلى سعادةِ امتلاكه، الخوف من أن يُسرق مني، ثم الشك في ألا يكون حقاً غير متناه. ولقد جاء هذان الانشغالان ليُنَمّيا حدة شراستي القديمة حيال البشر. كنت لا زلت أملك بعض الأصدقاء، فكففت عن رؤيتهم. هكذا لم أعد أغادر مثواي تقريباً وقد أصبحت أسير الكتاب. فحصت بالمجهر قفاه وسطحيه الخلقين، ودحضت كل إمكانية لوجود مَكْرٍ ما. لقد لاحظت بأن الرسوم الصغيرة تبعد ألفي صفحة، إحداها عن الأخرى، فسجلتها في فهرس أبجدي لم أتأخر في ملئه. غير أن تلك الرسوم لم تتكرر قط. وفي الليل، كنت أحلم بالكتاب خلال الإغفاءات النادرة التي كان الأرق يمحضني إياها.

وكان الصيف على وشك الانصرام حينما أدركتُ أن هذا الكتاب كان رهيباً. بيد أن ذلك لم يفدني شيئاً في أن أعترفَ بأنني كنت بدوري رهيباً، أنا الذي كنتُ أبصرهُ بعينيّ وأتحسسه بأصابعي وأظافري العشر. أحسستُ أنه كان يثير الكوابيس، وأنه شيءٌ بذيءٌ يَشْتُمَ الواقع ويُفْسده.

فكرت في النار، بيد أني خَشِيتُ أن يكون احتراقُ كتاب لا نهائي احتراقاً لا نهائياً أيضاً، يخنق بدخانه الكوكب الأرضي قاطبة.

تذكرت أنني قرأت، في مكان ما، أن أفضل موضع لإخفاء ورقة هو الغابة. وقبل إحالتي على التقاعد، كنتُ أعمل في المكتبة الوطنية التي تحتضن تسعمائة ألف كتاب؛ وأعلم أنه إلى يمين الممر ينساب سلم على شكل حلزوني إلى أعماق سُرداب تحفظ فيه الصحف والخرائط. اغتنمت فرصة عدم انتباه العاملين فأضعت، متعمداً، كتاب الرمال فوق أحد الرفوف الرطبة، دون أن أحاول تحديد العلو أو المسافة اللذين يفصلانه عن الباب.

لقد ارتحت قليلاً، بيد أني لا أريد حتى المرور من شارع مكسيكو.

بَحْثُ ابْنِ رُشْد

S'imaginant que la tragédie n'est autre chose que l'art de louer...

Ernest Renan : Averroés, 48 (1861)

كان أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (وسيتأخر هذا الإسم الطويل قرناً ليصير Averroés مـــارأبـ Benraist وبـ Avenryz، وحتى بـ Aben-Rassad و Filius Rosadis) يملي الفصل الحادي عشر من كتاب «تهافت التهافت» حيث يبرهن، رَدّاً على المتصوف الفارسي الغزالي مؤلف كتاب «تهافت الفلاسفة»، بأن الذاتَ الإلَهِيَّةَ لا تعلم سوى قوانين الكون العامة، أي ما يتصل بالأصناف لا بالأفراد. كان يكتب باطمئنان بطيء من اليمين إلى اليسار. ولم تكن ممارسةُ القِيَاسَاتِ المنطقيةِ ولا وَصْلُ طويلِ الفقراتِ مما يمنعُه من أن يشعر، كما لو كان الأمر سعادةً، بالمنزل البارد العميق الذي يحيط به. ففي عمق القيلولة يَهْدل حمام مُدَلّه، ويَرْتَفِعُ من بهو غيرِ مرئي خريرُ فسقيةٍ : شيءٌ ما في جسم ابن رشد، الذي جاء أجداده من الصحاري العربية، كان يُسَرُّ بتدفُّق الماء. وكانت الحدائق في أسفل، وكذا الوادي الكبير المنهمك، وبعدَ ذلك مدينة قرطبة المحبوبةُ التي لا تقل اتساعاً عن بغداد أو القاهرة، وتشبه آلةً معقدةً ودقيقةً. وحَوَالَيْ ذلك كلّه (وهذا ما كان ابن رشد يشعر به أيضاً) تمتد حتى التُخُومِ أرضُ إسپانيا، حيث لا توجد إلا أشياء قليلة، بيد أن كل شيء منها يبدو قائماً في وضع حقيقي وأبدي.

كان القلم يجري على الورقة، والبراهين تترابط ولا تقبل الدحض، غير أن همّاً طفيفاً كَدَّر سعادة ابن رشد. لم يكن «التهافت» سبب ذلك، فهو عملٌ عَرَضي، وإنما مشكلةٌ ذات طبيعة لغوية متصلة بالمؤلّف العظيم الذي سَيُبَرِّرُهُ بين الناس : شرح أرسطو. لقد مُنِحَ الناس

هذا اليوناني، نَبْعَ كلّ فلسفة، كَيْ يُعلّمهم كل ما يمكن أن يُعْرَف؛ وكانت غايةُ ابن رشد العسيرةُ أن يُؤَوّل كتبه مثلما يؤول العلماء القرآن. ولن يسجل التاريخ سوى أمور قليلة تضاهي في جمالها وشدة تأثيرها ما كَرّسَه طبيب عربي لأفكار رجل تفصله عنه أربعة عشر قرناً. ويجب أن نضيف إلى الصعوبات الجوهرية أن ابن رشد، الذي لم يكن على علم بالسريانية واليونانية، كان يعمل على كتاب مترجم عن ترجمة. وبالأمس استوقفته كلمتان مريبتان وردتا في بداية كتاب «الشعر» هما : تراجيديا وكوميديا. لقد عثر عليهما سنوات من قبل في الكتاب الثالث من «الخطابة»؛ بيد أن أحداً، في مضمار الإسلام، لم يخمن معناهما. تَعِبَ، دون جدوى، من مراجعة صفحات أَلِيخَانْدْرُو دِي أَفْرُودِيسْيَا، كما قارن، دون جدوى، بين الترجمتين اللتين أنجزهما النسطوري حنين بن اسحاق وأبو بِشْر مَتّى. والكلمتان اللّغزان تتكاثران في نص «الشعر» ولذا كان تلافيهما مستحيلاً.

وضع ابن رشد القلم. وحَدّث نَفْسَهُ (دون ثقة مفرطة) بأن ما نَنْشُده يكون قريباً من متناولنا في العادة، ثم ترك مخطوط «التهافت» واتجه صوب الخزانة حيث تصطف مجلداتٌ كثيرةٌ من كتاب «المُحْكَم» للأعمى بن سيده، منسوخةً بأقلام خطاطين فُرس. لقد كان من الهَزء الاعتقاد بأن ابن رشد لم يراجعْهَا من قَبْل، وإنما استهوتْه الآن لذةٌ كَسْلَى دفعته إلى تَصفُّحها مجدداً. وسرعان ما انتزعته من هذه التسلية صَدْفَةً صوتٍ رخيم. نظر من الشرفة المشربية فرأى، تحته، في البهو الأرضي الضيق، بعض الصبيان يلعبون شبه عراة. كان أحدهم، واقفاً على كَتِفَيْ آخر، يمثل المؤذّن بصورة جلية : عيناه مغمضتان بإحكام، بينما كان يتلو «لا إله إلا الله». أما الصبي، الذي يحمله دون أن يُصْدِر نَأْمَةً، فكان يُمثّل الصومعة. وكان الآخر، راكعاً على ركبتيه جاثياً في التراب، يمثّل جماعة المصلين. استمر اللعب أمداً وجيزاً، فقد كان كلُّهم يريد أن يكون المؤذّنَ ولم يكن أحد يريد أن يكون المصلين أو الصومعة. وسمعهم ابن رشد يتبارون في لهجة بذيئة، يمكن القول بأنها الإسپانية الأولية للعوام المسلمين في شبه الجزيرة. فتح «كتاب العين» للخليل، ففكّر مزهواً بأن قرطبة كُلّها (وربما الأندلس كله) تخلو من نسخةٍ أخرى من هذا المؤلّف الكامل الذي أرسله إليه الأمير يعقوب المنصور من طنجة. وذكّره اسم هذا الميناء بأن الرحالةَ أبا القاسم الأشعري، الذي عاد من المغرب، سيتناول وإياه طعام العشاء هذه الليلة في منزل فرج عالم القرآن. يزعم أبو القاسم أنه بلغ ممالك إمبراطورية الصين؛ ويُقْسم المشنّعون، اعتماداً على ذلك المنطق الفذ الذي يتولّد عن الحقد، أنه لم يطأ الصينَ قط، وأن الله يُسَبُّ في معابد هذا البلد. إن الاجتماع سيستغرق ساعاتٍ لا محالة، ولهذا عاود ابن رشد كتابة «التهافت» مُعْجلاً. وظل يعمل إلى حين الغروب.

انتقل الحوار، في منزل فرج، من مزايا الحاكم الفريدة، إلى مزايا أخيه الأمير؛ وبعد ذلك تحدث الجمع، وهم في الحديقة، عن الزهور، فأقسم أبو القاسم، الذي لم يكن رآها قط، أنه لا توجد زهور تضاهي الزهور التي تزيِّن الحدائق الأندلسية. لم يترك فَرَج لنفسه فرصة الاغتباط، فلاحظ بأن الفقيه ابن قتيبة قد وصف أنواعاً مدهشةً من الوردة الدائمة التي تنمو في حدائق الهندوستان، والتي تَعْرِضُ وريقاتها، ذاتُ الحمرة القانية، أحرفاً تقول : «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» مضيفاً بأن أبا القاسم يعرف هذه الزهور، دون شك. نظر إليه أبو القاسم هَلِعاً. فإن أجاب بنعم، اعتبره الجميع، عن حق، من أكثر الدجالين حضوراً ومصادفة؛ وإن أجاب بلا، اعتبروه كافراً. واختار أن يُغَمْغِمَ بأن سيد الكون يملك مفاتيح الغيب وأنه لا يوجد شيء في الأرض، أخضر أو يابس، لم يُسَجَّل في كتابه. تنتمي هذه العبارات إلى إحدى أوائل السُّوَر؛ ولذا قوبلت بهمهمة إجْلاَل. وعزم أبو القاسم، مزهواً بهذا النصر في الجدال، أن يتلفظ بأن الله كاملٌ في أعماله، متعذِّرُ التخمين، فَصَرَّح ابن رشد عندئذ، مُسْتَبِقاً العِلَلَ القَاصِيَةَ لـ (هيوم) الذي كان لا يزال بعد طيَّ الإبهام :

ـ قد أقبل، دون مشقةٍ تذكر، بوقوع الفقيه ابن قتيبة أو نُسَّاخِه في الخطأ، ولا أقبل إلا بمشقة أن تُعْطِيَ الأرض زهوراً تعلن إيمانها.

قال أبو القاسم :

ـ صدقت. كلمات عظيمة وحقيقية.

وتذكر الشاعر عبدُ الملك :

ـ يتحدث رَحَّالة عن شجرة ثمارها طيورٌ خضر. ولست أجد في الاعتقاد بما يقول مقدار المشقة التي أجدها في الاعتقاد بزهور ذات أحرف.

قال ابن رشد :

ـ يبدو أن لون الطيور يُسهل الأُعجوبة، فضلاً عن أن الثمار والطيور تنتميان إلى العالم الطبيعي. أما الكتابة فهي فن. فالانتقال من الأوراق إلى الطيور أسهل من الانتقال من الزهور إلى الحروف.

وأنكر ضيفٌ آخر، بِغَيْظٍ، أن تكون الكتابة فَنّاً، ما دام أصل القرآن ـ أم الكتاب ـ سابقاً على الخلق ومحفوظاً في السماء. وتحدث غَيْرُه عن الجاحظ البصري القائل بأن القرآن ماهية يمكن أن تتشكل في صورة إنسان أو صورة حيوان، وهو الرأي الذي يبدو موافقاً لرأي الذين ينسبون إليه وجهين. وعرض فرج، بتوسع، المذهب السني فقال بأن القرآن احدى صفات الله

مثل رحمته، يُنْسَخُ في كتاب، ويُتْلَى باللسان، ويُذْكَر بالقلب؛ إن اللغة والعلامات والكتابة من عمل الناس، أما القرآن فهو قَطْعي خالد. وكان بإمكان ابن رشد، شارح كتاب «الجمهورية»، أن يقول بأن أمّ الكتاب شيء من قبيل نموذجه الأفلاطوني، بيد أنه لاحظ أن علم اللا هوت لم يكن موضوعاً في متناول أبي القاسم.

ولاحظ آخرون ذلك أيضاً، فَنَاشَدَوا أبا القَاسِم أن يحكي لهم أعجوبةً ما. إذ ذاك، كما هو الشأن الآن، كان العالم فظيعاً، فالجُسَرَاءُ بإمكانهم السير فيه، وكذلك البؤساءُ الذين يستطيعون تطويع أنفسهم لكل وضع. وكانت ذاكرة أبي القاسم مرآةً لنَذَالاتٍ خاصة، فماذا يستطيع أن يحكي ؟. ثم إن الجمع يطالب، فضلاً عن ذلك، بالأعاجيب والأعجوبة قد لا تكون قابلةً للتبليغ؛ فقمر البنغال لا يشبه قمر اليمن، ومع ذلك سُمِحَ أن يوصفَ بنفس الأصوات. تَرَدَّدَ أبو القاسم، ثم تحدث فيما بعد معلناً بِتَقًى :

- إن منْ يتجولْ في المناخات والمُدُنِ يَرَ أموراً كثيرةً جديرةً بالتصديق. ولنقل بأنني رويت هذه الأعجوبة ذات مرة لملك الترك. وقعت في صينْ كَلاَنْ (كانطون)، حيث يندلق نهر ماء الحياة في البحر.

وسأل فَرَج ما إذا كانت المدينة تَبْعُد فراسخ عديدة عن السور الذي رفعه الإسكندر ذو القرنين لصَدّ ياجوج وماجوج، فقال أبو القاسم بعجرفةٍ غير إرادية :

- صحاري تفصل بينهما. وتستغرق القافلةُ الواحدةُ أربعين يوماً قبل أن تَلْمَح صوامِعَهَا، ويقال بأنها تستغرق قدر ذلك لبلوغها. ولم أعرف من امرئ في صينْ كَلاَن أنه رآها أو رأى من رآها.

ومَسّ ابن رشد، لحظةً، خوفٌ من لا متناهٍ ثخين، ومن مَحْض المكان ومحض المادة. نظر إلى الحديقة المتناظرة الهيأة، فأدرك أنّه شاخ ولم يعد نافعاً ولا حقيقياً. قال أبو القاسم :

- ذات مساءٍ، قادني تجار مسلمون من صينْ كَلاَن إلى منزل من خشبٍ مصبوغ، يعيش فيه قوم عديدون. لا يمكن وصف هيأةِ ذلك المنزل، الذي كان، على التقريب، حجرةً واحدة بها صفوف من خزائن أو شرفات بعضها فوق بعض. وكان في هذه الثقرات قومٌ يأكلون ويشربون، ومثلهم على الأرض، ومثلهم في الساحة. وكان أشخاصٌ في هذه الساحة يدقون على الطبل ويعزفون العود، عدا خمسة عشر منهم أو عشرين (على وجوههم أقنعة من لون قرمزي) يُصَلُّون ويُنْشِدُون ويتحاورون : يُعانون الأَسْرَ، ولا مَنْ رأى سجناً؛ ويمتطون فلا يُبْصَرُ الفرس؛ ويتقاتلون بيد أن السيوف كانت من قصب؛ ويموتُونَ ثم ينهضون قياماً بعد ذلك.

قال فرج :

ـ إنّ أفعال الحمقى تتجاوز توقُّعات الرجل العاقل.

فكان على أبي القاسم أن يوضّح :

ـ لم يكونوا حمقى، بل قال لي تاجرٌ بأنهم كانوا يمثّلون قصةً.

لم يفهم أحدٌ مراده، ولم يَبْدُ أن أحداً أراد أن يفهم. فانتقل أبو القاسم، وقد ارتج عليه الأمر، من الحكاية المروية إلى العلل الخائبة. قال، مستعيناً باليدين :

ـ فلنتخيّلْ شخصاً عرض قصةً عوض أن يحكيها، ولتكن القصةُ قصةَ نوم أُفْسُوس. إننا نراهم ينسحبون إلى الكهف، نراهم يصلون وينامون، نراهم ينامون بعيون مشرعة، نراهم وجسومهم تنمو بينما ينامون، نراهم يستفيقون بعد مرور تسع وثلاثمائة عام، نراهم يدفعون للبائع قطعة نقود قديمة، نراهم يستيقظون في الجنة، نراهم يستيقظون صحبة الكلب. شيءٌ من هذا القبيل ما عرضه أمامنا، تلك الأمسية، أشخاص الساحة.

وسأل فرج :

ـ وهل يتحدث أولئك الأشخاص ؟

فأجاب أبو القاسم، وقد تحول إلى مدافع عن عرض لا يتذكره إلا لماماً، وكان أرهقه أيّما إرهاق :

ـ بطبيعة الحال يتحدثون ! يتحدثون، ويُنْشِدون، ويلقون خطباً.

قال فرج :

ـ لا يتطلب الأمر، في مثل هذه الحال، عشرين شخصاً. فمتحدث واحد يمكن أن يحكي أي شيء، مهما كان معقداً.

وافق الجميع على هذا الرأي. وأُطريت فضائلُ اللغة العربية، التي هي اللغة التي يخاطِبُ الله الملائكةَ بها، وفيما بعد فضائلُ شِعْر العرب. وبعد أن تَفَحَّصَ عبد الملك هذا الشعر كما ينبغي، نعتَ بالقِدَم الشعراءَ الذين كانوا، وهم في دمشق أو قرطبة، يتمسكون بمشاهد رعوية، ومعجم بدوي، قائلاً بأنه من العبث أن يحتفل رجل بماء بئرٍ والوادي الكبير يمتد أمام ناظريه. ودعا إلى ضرورة تجديد المجازات القديمة قائلاً بأن زهيراً عندما شَبّه القَدَرَ بناقةٍ عشواء فإن هذه الصورة البلاغية أمكن أن تثير دهشة الناس في حينها، بيد أن خمسة قرون من الإعجاب ابتذلتها. ووافق الجميع على هذا الرأي، الذي استمعوا إليه عدة مرات، ومن أفواه كثيرة. كان ابن رشد صامتاً. وفي النهاية تَحَدَّثَ، إلى نفسه أكثر منه إلى غيره. قال ابن رشد :

ـ لقد دافعت ذات مرة، وببراهينَ من نفس الجبِلّة، عن القضية التي يؤيدها عبدُ الملك. يقال في الأسكندرية بأن المعصوم عن الزلل هو من زلّ وتاب؛ ونضيفُ أنه لكي نتحرر من خطإ فمن المناسب أن نُقر به. يقول زهير، في معلقته، أنه رأى القدر، خلال انصرام ثمانين حولاً من الألم والمجد، يصطدم مراراً وعلى حين غرة بأُناس مثلما تخبط ناقة عشواء؛ ويعتقد عبد الملك بأن هذه الصورة لم يَعُدْ بإمكانها أن تُثيرَ دَهْشَةَ أحد. بوسعي أن أجيب على هذه الملاحظة بأمور عدة : الأمر الأول، أنه إذا كانت غايةُ القصيدة إثارةَ الاستغراب فَزَمَنُها لن يقاس بالقرون وإنما بالأيام والساعات وربما الدقائق. أما الأمر الثاني فهو أن الشاعر الذائعَ الصيت مكتشفٌ أكثر مما هو مخترع. وبغيةَ مَدْحِ ابن شرف البرجي، قيل وأعيد أنه وحده استطاع أن يَتَخَيَّلَ النُّجُومَ في الفجر تتساقط رويداً كأوراق الشجر؛ وذلك، إذا كان صحيحاً، يبرهن على أن الصورة مبتذلة. إن الصورة التي يستطيع امرؤ فرد تشكيلها هي تلك التي لا تؤثر في أحد. توجد على الأرض أشياءُ لا حصر لها؛ وأيٌّ منها يمكن أن يضاهى بغيره. فتشبيه النجوم بالأوراق أقل تحكماً من تشبيهها بأسماك أو طيور. وخلافاً لذلك فإن أحداً ما كان بإمكانه ألاّ يشعر ذات مرة بأن القدر قوي، شارد اللب، وأنه بريءٌ وغير إنساني أيضاً. من أجل هذه القناعة التي يمكن أن تكون عابرةً أو متصلةً، لكن لا أحد يستطيع تلافيها ـ كُتِبَ بيت زهير، ولن يقال أفضلُ مما قيل فيه. زد على ذلك (وهذا ربما هو جوهر تأملاتي) أن الزمن، الذي يَنْهَبُ القصور، يُثْري الأشعار. لقد استُعمل بيت زهير، حينما صاغه هذا الرجل في جزيرة العرب، للمقابلة بين صورتين هما صورة الناقة العجوز وصورة القدر؛ وحين يترددُ الآن يَصْلُح لتَـذكُّر زهير ولمزج همومنا بهموم ذلك العربي الذي قضى. كان للصورة البلاغية طرفان، فأصبح لها اليوم أربعة. إن الزّمن يُكبر مضمار الأشعار، وأعرف من بعضهم أنها، على غرار الموسيقى، تشكل جماع الأشياء بالنسبة لكافة الناس. وعلى هذا النّحو، حينما أرقتني منذ سنوات، بمراكش، ذكرى قرطبة، كنت أُسَرُّ بترديد البيت الذي خاطب به عبد الرحمان، وهو في حدائق الرصافة، نَخْلَةً إفريقيةً :

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبة　　　فمثلك في الإقْصَاءِ والمُنْتَأى مِثْلِي

فائدةٌ شعرية منقطعة النظير : فالكلمات التي قالها ملك يتشوق إلى الشرق، تَصْلُح لي، أنا المُبْعَدَ في إفريقيا، للتعبير عن حنيني إلى إسبانيا.

وتحدثَ ابن رشد، بعد ذلك، عن أوائلِ الشعراء، أولئك الذين قالوا، في عصر الجاهلية قبل الإسلام، كُلَّ شيء بواسطة لغة الصحاري اللا متناهية. ولأن ترهات ابن شرف أزعجته،

ليس دونما سبب، فقد قال بأن كلَّ الشعر اختُصِر في القدماء وفي القرآن. وأدان بالجهل والغرور كل طموح في التجديد. واستمع إليه الآخرون بسرور، لأنه كان ينتقم للقديم.

كان المؤذنون ينادون لصلاة الفجر عندما عاد ابن رشد للدخول إلى مكتبته (في قاعة الحريم، عذبت الإماء ذوات الشعر الأسود أمةً ذات شعر أحمر، غير أنه لن يَطّلِع على الحدث إلا عند المساء). لقد كشف له أمرٌ ما معنى الكلمتين الغامضتين، فأضاف، بخط ثابت ومُعْتَنَى به، هذه الأسطر إلى المخطوطة : «يسمي أرسطو قصائد المدح تراجيديا، وقصائد الهجاء والقذف كوميديا. وتَزْخَرُ صفحات القرآن ومعلقات الكعبة بتراجيديات وكوميديات رائعة».

شعَر بالنوم، وشعَر ببعض البرودة. وحينما فَكَّ العمامة، نظر إلى نفسه في مرآة من معدن. لست أدري ماذا أبصرت عيناه لأن أحداً من المؤرخين لم يصف ملامح وجهه. لكنني أعرف أنه اختفى فجأة، كما لو صعقته نار من غير ضوء، واختفى معه المنزلُ وفسقيةُ الماء اللا مرئيةُ والكتُب والمخطوطاتُ والحَمَامُ والإماء الكثيرات ذوات الشعر الأسود والأَمَة المذعورة ذات الشعر الأحمر وفَرَج وأبو القاسم والورود وربّما الوادي الكبير أيضاً.

□□□

أردت في القصة السّالفة حكايةَ سيرورة اندحار. فكرتُ، بَدْءاً، في رئيس أساقفة كَانْتَرْبُري ذاك الذي اقترح البرهنة على أن هناك إلهاً واحداً؛ ثم في خِيميائِيّي القرون الوسطى الذين كانوا يَنْشُدون الحجرة الفلسفية؛ ثم في قطاعات الزاوية الثلاثة الباطلة، ومُقَوِّمي الدائرة. وفكرتُ، بعد ذلك، أن الأكثر شاعريةً حالةُ رجل عَيَّنَ لنفسه غايةً لم تُحظر على غيره، لكنها حُظرت عليه هو. تذكرت ابن رشد الذي لم يستطع مطلقاً، وهو مُنْغَلِقٌ في مجال الإسلام، أن يُدرك معنى كلمتي تراجيديا وكوميديا. حَكَيْتُ الحدث، وفيما كنت أتَقَدَّم شَعَرْتُ بما يُحتمل أن يكون ذلك الإله الذي ذَكَرَهُ (بورتن) قد شعر به إذ عَيَّن لنفسه أن يخلق ثوراً فخلق جاموسةً. شعرت أن الأثر يَسْخَر مني، وأنّ ابن رشد، حينما أراد أن يتخيل ما هي المسرحية دون أن يَرْتابَ فيما هو المَسْرَحُ، لم يكن أكثر عبثاً مني أنا الذي أُريد تخيل ابن رشد دون أن تكون لدي مادة عنه عدا ذلك النّزر اليسير الموجود لدى (رِينَانْ) و(لِينْ) و(آسِينْ بَلاثْيُوسْ). شعرت، عند الصفحة الأخيرة، أن قصتي كانت رمزاً للرجل الذي كُنْتُه حينما كنت بصدد كتابتها، وأنني، بغية إملاء هذه القصة، كان عليَّ أن أكون ذلك الرجل، ولكي أكونَهُ كان عليَّ أن أُمْلي تلك القصة، وهكذا إلى ما لا نهاية. (في اللحظة التي أتوقف عن الإيمان به، يختفي «ابن رشد»).

الخَرائِبُ الدّائِرِيّة

And if left off dreaming about you...

Through The Looking glass, IV

لا أحد رآه ينزل في الليل المَهْيَمِنِ، ولا أحد رأى قُلَيْكَ الخيزران يغطس في الوحل المقدس. لكن أحداً ما كان له أن يجهل، بعد مرور بضعة أيام، أن الرجل الصّموتَ أتى من الجنوب وأن وطنه إحدى القرى اللا متناهية في أعالي النهر، عند سفح الجبل العنيف، حيث اللغة الزّنْدِيّة لم تتلوث باليونانية وحيث الجذام نادر الوجود. غير أن المؤكد هو أن الرجل الرمادي قَبّل الوحل، وصعد إلى الضفة دون أن يُبْعِدَ (ربما دون شعور منه) الأقْصَابَ التي كانت تخدش جلده، ثم زحف، طائشاً مُدَمّى، إلى غاية الحرم الدائري الذي يعلوه نَمِرٌ أو فَرَسٌ قَدٌّ من حجر، كان من قبلُ في لون النار وأصبح الآن بلون الرماد. إن هذا الحرم معبد افترسته النيران القديمة ودنسته الغابة المستنقعية، ولم يعد ربُّه يتلقى عطاء الرجال. وتمدد الغريب عند قاعدة التمثال. أيقَظَتْهُ الشمسُ في كبد السماء، فلاحظ، غير مندهش، بأن جروحه قد انْتَمَلَتْ؛ أغمض عينيه الباهتتين ونام، ليس تحت تأثير وَهَنِ الجسم وإنما بقرار من الإرادة. كان يعلم أن هذا المعبد هو المكان الذي يَنْشُدُهُ مخططه الذي لا ينهزم؛ وكان يعلم أن الأشجار التي لا تكف عن التكاثر لم تُفْلِحْ في أن تخنُق، في أسافل النهر، خرائب معبد آخر مماثل، أحرقَتْ آلهته بدورها وماتت؛ كما كان يعلم أن واجبه الآن هو أن ينام. وعند منتصف الليل، أيقظه صراخ طائر متعذر المواساة، ونبهته آثارُ أقدامٍ حافية، وبِضْعُ تينات وجَرّةٌ، إلى أن سكان الناحية قد تجسسوا على نومه باحترام فالتمسوا حمايته أو خافوا سحره. شَعَر ببرودة الخوف فبحث في السور المتبدّدِ عن حفرة رمسية توارى فيها بأوراق مجهولة.

لم يكن المخطط الذي يقوده مستحيلاً، وإن كان غير طبيعي. كان يريد أن يَحْلُمَ رجلاً : يريد أن يحلمه باكتمال بالغ الدقة فيفرضه على الواقع. لقد استنفد هذا المشروع الساحر كل فضاء روحه، بحيث لو سأله أحد عن اسمه أو عن ملمح ما من حياته السالفة لما حار جواباً. وكان المعبد المهجور والمبَدَّدُ ملائماً له لأنه يشكل الحد الأدنى من العالم المرئي، كما كانت جيرة الفلاحين ملائمة نظراً لأن هؤلاء كانوا يتحملون تأمين حاجاته الزهيدة فكان أرزٌ وفاكهةٌ جزيتهم غذاءً كافياً لجسده، المكرَّسِ لمهمة وحيدة هي النوم والحلم.

في البدء، كانت الأحلام عمائيةً. وبعد قليل غدت ذات طبيعة جدلية. لقد رأى الغريب نفسه في مركز مُدَرَّج دائري شبيه بالمعبد الذي التهمته النيران : أسرابٌ من تلاميذ صوتين كانوا يملأون المقاعد، وكانت وجوههم تتدلى على مسافة قرون أو على ارتفاع كوكب، بيد أنها كانت واضحة تماماً. كان الرجل يملي عليهم دروساً في التشريح، والكوسموغرافيا، والسحر؛ والوجوه تنصت بشغف وتحاول الإجابة بذكاء، كما لو كانت تتوقع أهمية هذا الاختبار الذي قد يُحَرِّرُ أحدها من وضعيته كظَاهِرٍ باطلٍ، فَيَدُسُّه في العالم الواقعي. وكان الرجل، في الحلم واليقظة، يتأمل إجابات أَشْبَاحِهِ، فلا يتركُ نَفْسَه طُعْماً لتملُّق الدَّجَّالِينَ منهم، وإن كان يُخَمِّنُ، مع بعض التردد، تفاهماً متنامياً. لقد كان يبحث عن نَفْسٍ تستحقُّ المشاركة في الكون.

وبعد تسع ليال أو عشر أدرك ببعض المرارة أنه لا يمكن أن يُؤَمِّلَ شيئاً في هؤلاء التلاميذ الذين يقبلون مَذْهَبَهُ بسلبيةٍ وإنما المؤمِّلُ أولئك الذين يُجَازِفُونَ أحياناً بمعارضةٍ معقولة. إن الأوائل، مع أنهم كانوا جديرين بالحب والعطف، ما كان بإمكانهم الارتقاء إلى مصاف الأفراد؛ أما الأواخر فكانوا بعض الشيء أفراداً على نحو مسبق. وذات ظهيرة (والظهيراتُ بدورها أصبحت تابعة للنوم، فلم يكن يستيقظ الآن إلا بضع ساعات في الفجر) صَرَفَ المَجْمَعَ الوهمي الشاسع بكيفية حاسمة، وبقي صحبة تلميذ واحد. كان صبياً صموتاً، عبوساً، متمرداً أحياناً، وذا ملامح مُسَنَّنَةٍ تكرر ملامح الحالم به. ولم تستمر بَلْبَلَتُه الناتجة عن القضاء المفاجئ على زملائه، كما أن تقدمه، بعد بضعة دروس خاصة، قد تمكن من إثارة دهشة معلمه. ومع ذلك حصلت الكارثة : فذات يوم انبعث الرجل من الحلم كما ينبعث من صحراء لَزِجَةٍ، ورأى ضوء الظهيرة الباطل الذي حسبه، في البدء، ضوء الفجر، فأدرك أنه لم يحلم. وطيلة تلك الليلة وطوال النهار، تكالب عليه صحو الأرق الذي لا يطاق. أراد أن

يستكشف الغابة حتى يتهالك نَصَباً. ورغم تعاطيه الشُّوْكَران لم يحصل إلا بالكاد على بضع لحظات حلم هزيل، مُجَزَّعة برؤى خاطفة من نمط بدائي : متعذرة الاستعمال. أراد أنْ يُلَمَّ شَتَاتَ المَجْمَعِ فلم يكد يتلفظ ببضع كلمات وعظٍ موجزة، حتى انحل المجمع وامحى. وفي يقظته المتواصلة تقريباً، أحرقت عينيه، المليئتين بالعمر، دموع الغضب.

كان يدرك أن مهمة تشكيل المادة غير المتلاحمة والمدوَّخة التي تتألف منها الأحلام هي أكثر المهام التي يستطيع الإنسان مباشرتها إرهاقاً، حتى لو نَفَذَ إلى كل ألغاز النظامين العلوي والسفلي : بل هي أشد إرهاقاً من فَتْلِ حبل من رمال أو سَكِّ ريح لا وجه له. وعلم أن الفشل الأول أمر لا مَفَرَّ منه، فأقسم أن ينسى الهَلْوَسَة الهائلة التي أَضَلَّته في البداية، وبحث عن منهج آخر للعمل. وقبل اختبار هذا المنهج، كرّس شهراً لاسترجاع القوى التي بَدَّدَها الهَذَيَانُ. هجر كل عزم على الحلم، فتمكن حيناً، على وجه التقريب، من النوم خلال جزء معقول من اليوم. وفي المرات النادرة التي رأى فيها حلماً طيلة تلك الفترة، لم يكن ليعيره انتباهاً. انتظر اكتمال قرص القمر حتى يواصل عمله، ثم تطهر، عند الظهيرة، في مياه النهر، وتعبّد للآلهة الكواكبية، ونطق مقاطع صوتية مباحة من اسم جبار، ثم نام. مباشرة بعد ذلك، حلم بقلب يَنْبُضُ.

حلمه نشطاً، ساخناً، سرياً، في ضخامة يد مضومة، أحمر رُمّاني اللون في عتمة جسم بشري لم يتحدد بَعْدُ وجهه أو جنسه. حلمه بحب مُسْتَفْصِلٍ خلال أربعة عشر ليلة مضيئة. وكان، في كل ليلة، يبصره ببداهة أكبر. لم يمسسه : واكتفى بفحصه وملاحظته أو تصحيحه بواسطة النظر أحياناً. كان يُدركه ويعيشه من عمق مسافات مضاعفة ومن زوايا متعددة. وفي الليلة الرابعة عشر حاذى بسبابته الشريان الرئوي ثم القلب كله، من خارج ومن داخل. وكان الاختبار مرضياً فتعمد ألاّ يحلم طيلة ليلة، ثم استلم القلب مجدداً. ذكر اسم أحد الكواكب وحاول رؤية عضو رئيسي آخر. لم تنقض سنة حتى كان قد بلغ الهيكل العظمي والجفنين. ولعل تخيل الشعيرات التي لا حصر لها كان المهمة الأشد صعوبة. ثم رأى في منامه رجلاً مكتملاً، شاباً، بيد أن هذا لم يكن ليقوم أم يتكلم أو يستطيع فتح عينيه. ليلة تلو ليلة، كان الرجل يراه في منامه نائماً.

نجد في النشكويات الفنوصية أن خالقي العالم عجنوا آدم أحمر فلم يستطع الانتصاب قائما؛ ولقد كان آدم الحلم الذي سَوَّتْهُ ليالي السامر شبيهاً، في انعدام المهارة والفظاظة والبدائية، بآدم الغبار ذاك. وذات ظهيرة أو شك الرجل أن يُبَدِّدَ عمله، بيد أنه تاب (وربما

كان الأفضل، بالنسبة له، أن يُبَدِّده). وبعد استنفاد النذور لأرواح الأرض والنهر، ارتمى عند قدمي النصب الذي ربما كان نمراً وربما مهراً، فاستدر عونه المجهول. في ذلك الغروب، حلم بالتمثال. حلم به حياً، مرتعشاً : لم يكن اللقيط الشنيع نمراً أو مهراً وإنما كان هذين المخلوقين الشرسين كلاهما كما كان ثوراً، ووردة، وعاصفة. لقد كشف له هذا الإله المتعدّد أن اسمه الأرضي كان «النار» وأنه قد قُدِّمَتْ له في هذا المعبد الدائري (وفي معابد أخرى مماثلة) قرابين وكُرِّست عبادةً وأنه سيبعث روحاً سحرياً في الشبح المحلوم به، بحيث ستؤمن جميع المخلوقات، باستثناء الحالم والنار ذاتها، أنه إنسان من لحم وعظم. وأمره بإرساله، متى ما لُقِّن الطقوس، إلى المعبد الخرب الآخر الذي لا تزال أهراماته، في أسافل النهر، شاخصةً حتى يمجده صوتٌ بذلك المبنى المهجور. واستيقظ المحلوم به في حلم الرجل الحالم.

نفذ الساحر الأوامر. وكرّس أمداً من الزمن (بلغ، في نهاية المطاف، سنتين) ليكشف لرجله خفايا الكون وعبادة النار. كان الافتراق عنه موجعاً في السويداء، فكان يعمل كل يوم على تأخير ساعاته المخصصة للنوم بدعوى الضروريات التربوية. ولقد أعاد كذلك صوغ الكتف الأيمن الذي لعله كان شائهاً. كان يؤرقه، في بعض الأحيان، شعور بأن كل ذلك قد حدث من قَبْلُ... بيد أن أيامه، على وجه العموم، كانت سعيدة بحيث كان يفكر إذ يغمض عينيه : «سأكون الآن صحبة ابني» أو يقول بشكل أشد ندرة : «إن الإبن الذي أنجبته ينتظرني، وسوف لن يوجد ما لم أذهب إليه».

عَوَّدَهُ رويداً رويداً على الواقع. فذات مرة أمره برفع علم فوق قمة نائية، وفي الغد رفرف العلم على القمة. وحاول تجارب مشابهة، متزايدة الجسارة. ثم أدرك ببعض المرارة أن ابنه غدا وشيك الولادة ـ وأنه ربما كان قلقاً لذلك. تلك الليلة قبّله لأول مرة، ثم أرسله إلى المعبد الآخر حيث تشيخ البقايا، في أسافل النهر، على مسافة فراسخ كثيرة العدد من غابة معقدة ومستنقعات. وكان من قَبْلُ بَثَّ فيه نسياناً كليا لسنوات تَعَلُّمِه الماضية (حتى لا يعلم مطلقاً بأنه كان شبحاً، وحتى يعتقد نفسه بشراً كالآخرين).

بيد أن ظَفَرَهُ وسلامه تكدرا بالملل. فكان يسجد، في غسق المساء والفجر، أمام الصورة الحجرية، وربما تخيل ابنه وهو يقوم بطقوس مشابهة، في خرائب دائرية أخرى، في أسافل النهر. وفي الليل، لم يكن يرى في منامه حلماً أو كان يحلم على نحو ما يفعل الناس كَافَّةً. كان يدرك بنوع من الشحوب أصوات الكون وأشكاله : إنه الإبن الغائب يقتات من تناقص

روحه هنا. لقد اكتمل مخطط حياته. وظل الرجل في نوع من الوجد والانفعال. ثم بعد مضي حقبة من الزمن، يُوثِرُ بعض رواة قصته عَدَّها بالسنين وبعضُهم الآخر بالخمسيَّات، أيقظه من النوم عند منتصف الليل جَدَّافان : لم يستطع رؤية وجهيهما بيد أنهما حدثاه عن ساحر في معبد بـ «الشمال»، قادر على المشي فوق النار دون أن يصاب بحروق. وتذكر الساحر فجأة كلمات الإله. تذكر أن النار وحدها، من بين مخلوقات الأرض جميعاً، كانت تعلم أن ابنه كان شبحاً. ومع أن هذه الذكرى وَاسَتْهُ في بادئ الأمر، إلا أنها أزعجته في النهاية.

كان يخشى أن يفكر ابنه في هذه الحظوة الخارقة فيكتشف، على نحو ما، أن وضعيته هي وضعية ظل. أية مهانة لا نظير لها، وأي غثيان سيشعر بهما حين يكتشف أنه ليس إنساناً وإنما انعكاس لحلم إنسان آخر !. إن كل أب يهتم بالأبناء الذين أنجبهم (أو سمح بذلك) في محض الغموض أو في السعادة، لذا كان من الطبيعي أن يعتري السَّاحِرَ قلق على مصير هذا الإبن، الذي فكر فيه حشاشة حشاشة وملْمحاً مَلْمحاً خلال ألف ليلة وليلة سرية.

وكانت نهاية تأملاته مفاجئة، وإن كانت بضع علامات قد بشرت بها. ففي البدء، ظهرت على البعد سحابةٌ (بعد جفاف طويل) فوق هضبة، خفيفةٌ مثل طائر؛ ثم اكتست السماء، جنوباً، اللون الوردي لون لثة الفهود؛ ثم كتل الدخان الهائلة التي أصدأت معدن الليالي؛ وبعد ذلك كله فرار الحيوانات المذعورة. يعني ذلك أن ما حصل منذ قرون كثيرة قد تكرر : فقد دمرت النار خرائب معبد إله النار. هكذا رأى الساحر، ذات فجر لا طيور فيه، ناراً متدفقة تنصهر على الأسوار، ففكر لحظة أن يلوذ بالمياه، غير أنه سرعان ما أدرك أن الموت إنما جاء ليتوج شيخوخته ويُقيلَهُ من أعماله. وسار فوق مِزَقِ النار، بيد أن هذه لم تنهش لحمه، بل رَبَّتَت عليه وغمرته دون سخونة ودون إحراق. وبارتياح، وذل، ورعب، أدرك أنه هو أيضاً مجرد مظهر، كان شخص آخر بصدد رؤيته في المنام.

الآخَـرُ

وقعت الواقعة في فبراير 1969، شمال بُوسْطُون بكيمْبْرِدْج. إنني لم أروها حيناً لأن نِيَّتي الأولى كانت نسيانها حتى لا أفقد صوابي. واليوم، في 1972، أعتقد أنني إذا رويتها فَسَيَأْخُذُهَا الناس مأخذ الحكاية، وربما صارت كذلك بالنسبة لي مع مرور الزمن.

أعلم أنها كانت فظيعةً لحظةَ وُقُوعِهَا، كما كانت أفظع طيلة الليالي المؤرقة التي تَلَتْهَا. بيد أن ذلك لا يعني أن سَرْدَها يُمْكِن أن يثير عواطف أحدٍ دوني.

كانت الساعة العاشرة صباحاً، وكنت أستريح على مقعد أمام نهر شَارْلْ. وكان هناك عن يميني، وعلى بُعْدِ خمسمائة متر، بناية شاهقة لم أعرف أبداً لها اسماً. لقد كان الماء الرمادي يجرف قطعاً كبيرة من الثلج، كما كان النهر، لاَمَفَرَّ، يذكِّرني بالزمن، صورة هِيرَاقْلِيطْ الألفية. كنت قد نمت جيداً، وبدا لي أن دَرْسَ الظهيرة، أمس، استطاع أن يثير انتباه تلامذتي. أما حولي فَلَمْ تكن هناك نفسٌ تتحرك.

بغتةً استقر لدي انطباعٌ (وهو ما يطابق حالة إعياء، حسب علماء النفس) بأنني قد عِشْتُ فيما قبل هذه اللحظة. على الطرف الآخر من المقعد الذي أجلس عليه، جلس شخصٌ ما. كنت أُفَضِّل البقاء بمفردي، غير أنني لم أكن أريد الانصراف حيناً حتى لا أبدو عديم اللياقة. وشرع الآخر في إصدار صَفِيرٍ. إذ ذاك استولى عليَّ أولُ شعورٍ بالقلق في ذلك الصباح. فما كان يصفره، أو ما كان يحاول أن يَصْفِرَهُ (إنني لم أكن جَيِّد السمع أبداً) هو نَغْمَة «لاَ طَابِيرَا» الشعبية لصاحبها إلْيَاسْ رِيكُولِيسْ. لقد عادت بي هذه النغمة إلى بَهْوٍ، تلاشى، وإلى ذكرى أَلْفَارُو مِيلْيَانْ لاَفِينُورْ الذي قضى منذ أمد طويل. ثم تذكرت الكلمات، كلمات الشطرين الأولين. لم يكن الصَّوْتُ صَوْتَ أَلْفَارُو، غير أنه كان يحاول أنْ يكونه. وتَعَرَّفْتُ عليه برعب.

دنوتُ منه، وسألته.

- سيدي، هل أنت أورُوكْوَايِي أم أرجنتيني ؟

- أرجنتيني، بيد أني أعيش بجنيف منذ 1914.

كذلك كانت إجابته. وحل صمتٌ طويلٌ، ثم واصلتُ :

- في رقم 17، شارع مالاكُنْو، إزاء الكنيسة الروسية ؟

أجابني مُنْعِماً.

قلت له بحسم :

- في هذه الحال، أنت تُدْعَى خورخي لويس بورخيس. أنا أيضاً خورخي لويس بورخيس. نحن في 1969، وفي مدينة كِيمْبْرِدْج.

أجابني بصوتي :

- كَلاَّ، بل بعيداً بعض الشيء.

وبعد برهة ألَحَّ :

- إنني في جنيف، جالس على مقعد، وعلى بُعْد خطوات من الرُّونْ. الغريب هو أننا نتشابه، بيد أنك أكبر سِنّاً وشعرك رمادي.

أجبته :

- يمكن لي أن أبَرْهِنَ لك بأنني لستُ كاذباً، وسأخبرك بأمور لا يستطيع مجهول أن يعلمها. ففي البيت، هناك مَاطِي من فضة قائم على حامل في شكل أفاعي، أحضره جدنا الأول من البِيرُو. هناك أيضاً طَشْتٌ من فضة يتدلى من قَرَبُوس. ويوجد، في صوان غرفتك، صفان من الكتب. مجلدات «ألف ليلة وليلة» الثلاثة في ترجمة لِينْ Lane، مزينة بمحفورات، وبها تعاليق كُتبت، فيما بين الفصول، بحروف دقيقة، ومعجم كِيتْشِيرَاتْ للغة اللاتينية، وكتاب Germania لطَاسِيتْ باللاتينية وفي ترجمة كُورْدُونْ، ونسخة من Don Quijote في طبعة كَارْنْيِي، وكتاب Tablas de Sangre لرِيفِيرَا إينْدَارْتِي، مع إهداء بخط المؤلف، وكتاب Sartor Resartus لكَارْلاَيْل، وسيرة آمْيِيلْ و، وراء البقية الباقية، كتاب خشن الشكل يتناول العادات الجنسية لشعوب البلقان. كذلك لم أَنْسَ نهاية ظهيرةٍ، في طابق أول ما، بساحة دُوبُورْج.

وصحح خطأي :

- دُوفُورْ.

- بالضبط، دُوفُورْ. ألا يكفيك هذا ؟

أجاب :

ـ كلا. هذه البراهين لا تبرهن على شيء. فإذا كنتَ بصدد رؤيتك في الحلم، من الطبيعي أن تعرف ما أعرف. إن لائحتك المطنبة باطلةٌ تماماً.

لقد كان الاعتراض صائباً، فأجبته :

ـ إذا كانت هذه الصبيحةُ وهذا اللقاءُ حلمين، فكل منا لابد أن يعتقد أن الحالم هو. ربما تَوَقَّفْنَا عن الحلم، وربما لم نفعل. وبين هذا وذاك نَحْنُ مرغمان على قبول الحلم، مثلما قبلنا الكون، وقبلنا أن نكون مولودين، وقبلنا أن نرى بالأعين، ونتنفس.

قال بقلق :

ـ وإذا تواصل الحلم ؟

ولتهدئته، وتهدئة نفسي، ادعيت سكوناً كنت خاوي الوِفَاضِ منه في الواقع. قلت له :

ـ ها إن حُلمي قد دام سبعين سنة. وعندما تَتَذَكَّرُ، في نهاية المطاف، فإنه لا يكون بمستطاعنا إلاّ أن نلتقي ذواتنا. وذلك ما يحدث لنا الآن، عدا أننا اثنان. ألست تريد أن تعرف شيئاً عن مَاضِيَّ، الذي هو المستقبل الذي ينتظرك ؟

هز رأسه بالإيجاب دون أن ينبس ببنت شفة.

واصلْتُ، وقد اختلط علي الأمرُ قليلاً :

ـ لا تزال أمنا معافاة، في بيتها بزاوية تْشَارْكَاسْ وَمَايْيُو، بِبْوِينُوسْ آيْرِيسْ، أما أبونا فقد مات منذ ثلاثين سنة. مات من مرض القلب. أَوْدَتْ بحياته أزمة فالج شقي؛ بحيث أن يده اليسرى حين وُضِعت على اليُمنى بَدَتْ أشبه بيد طفل فوق يد عملاق. لقد مات بفراغ صبر من يرغب في الموت، لكن دون شكوى. وكانت جدتنا قد قَضَتْ نَحْبَهَا في نفس البيت. وقبل بضعة أيام من نهايتها، دعتنا جميعاً إلى جوارها وقالت لنا : «إنني امرأة عجوز جداً تموت حالياً ببطء كبير. فلا يَرْتَعِبْ أحدكم من أمر عادي وبالغ الابتذال». لقد تزوجَتْ اخْتُكَ، نُورَا، وأنجبت ولدين. بالمناسبة، كيف حالهم في البيت ؟

ـ حسناً. أما أبونا فلا يزال يواصل سخرياته من الدين. أمسِ، مساءً، قال بأن يسوع كان أشبه بالكَاوْتْشُوسْ الذين لا يريدون توريط أنفسهم بتاتاً، وأنه لذلك كان يعظ بواسطة الأمثال.

وتردَّدَ ثم قال لي :

ـ وأنت ؟

ـ لست أدري كم عـدد الكتب التي ستَكْتُبُهَـا، وإن كنت أدري أنهـا مفرطـة الكثرة. ستكْتُبُ أشعاراً تَخَوّلُكَ لذةً لن يشاركك أحدٌ فيهـا، وقصصـاً ذات طـابع خوارقي، كمـا ستُلقي دروساً شأن أبيك وشأن العديد من أقاربك.

لقد كنت سعيداً لكونه لم يسألني شيئا عن مدى فشل تلك الكتب أو نجـاحِهَـا، فواصلتُ حديثي مبدّلا نغمته :

ـ فيمـا يخص التـاريـخ... لقـد وقعت حربٌ أخرى بين نَفْسِ المتحـاربين تَقْريبـاً، ولم تتأخّر فرنسا عن الاستسلام؛ أما إنجلترا وأمريكا فقد خاضتا ضـد مستبـد ألمـاني، كـان يـدعى هِتْلر، معركة وَاتِرْلُو الـدوريـة. وحوالي سنـة 1946 أنجبت بْوِينُوسْ آيْرِيسْ رُوسَـاسْ آخر، وهو مستبد بالغ الشبه بسلفنا. لقد أنْقَذَنَا، سنة 1955، إقليم قرطبة مثلمـا فعل ذلـك من قبلُ إنْطْرِي رِيُوسْ، أما اليوم فالأمور تسير سيراً سيئاً. إن روسيـا آخـذةٌ في الاستيلاء على الكرة الأرضيـة؛ بينما لم تقرر أمريكا بَعْدُ، يَعُوقُهَا معتقد الديموقراطية البـاطلُ، أنْ تصير امبراطوريـةً. ويومـاً فَيَوْماً يغدو بلدنا أكثر إقليمية. أكثر إقليمية وأشد إعجاباً بنفسه، كمـا لو كـان يغمض عينيـه. وسوف لن أندهش لو عُوّضَ تعليم اللاّتينية بتعليم الكُوَارَاني.

لاحظتُ أنه لم يكن يعيرني انتباهاً. ذلـك أن الخوف الأوّلي من المستحيل الـذي يبـدو له يقيناً يُثيرُ جزعه. أما أنا الذي لم أكن أباً، فقد شعرت بِدَفْقَةِ حب لهـذا الفتى التعس كَـانَتْ أشد حميمية مما لو كان ابني، فلذة كبدي. رأيته يدعك بين يديه كتاباً، فسألتـه أي كتـاب هو. أجاب، ليس دون غرور :

ـ «المسكونون» أو، حسب رأيي، «الشياطين» لفيودور دُوسْتُويِفْسْكِي.

ـ تلاشت معالمه لدي. كيف هو ؟

بمجرد ما تحدثْتُ، ادركتُ أن سؤالي كان شتيمةً. وحسم قائلا :

ـ لقد تغلغل المعلّم الروسي قبل الجميع في متاهات النفس السلافية.

وبدت لي هذه المحاولة البلاغية برهاناً على أنه استعاد طُمأنينته.

سألته أية كتب أخرى لهذا المعلم قرأ.

عَدَّد كتابين أو ثلاثة، من بينها «المضاعف».

سألته ما إذا كان يميز جيداً، أثناء قراءته لهذه الكتب، بين الشخصيات مثلمـا هو الشـأن لدى جُوزِيفْ كُونْرَادْ، وما إذا كان قد قرر مواصلة فحص الآثار الكاملة.

أجانبي مُنْدهِشاً بعض الدهشة :

ـ في الحقيقة، كَلاَّ.

سألته ماذا يكتب حالياً فقال لي بأنه يُعِدُّ مجموعةً شعريةً سَيُعَنْوِنُهَا «الأناشيد الحمراء». ولقد فكر أيضاً في تسميتها «الإيقاعات الحمراء».

قلت له :

ـ ولم لا ؟ بإمكانك التَّعَلُّل بسابقتين جيدتين : الشعر الأزرق لرُوبِينْ دَارْيُو، والأنشودة الرمادية لڤيرْلِين.

ودون أن يستمع إليَّ، شرح لي بأن كتابه سَيَتَغَنَّى بالأُخُوة بين جميع البشر. فالشاعر، في زماننا، لا يمكن أن يولي ظَهْرَه لعصره.

مكثت مفكراً ثم سألته ما إذا كان يشعر حقاً بأنه أخو الجميع. مثلاً : أخو جميع تجار النعوش، وجميع سُعاة البريد، وجميع الفواصين، وجميع أولئك الذين يسكنون بيوتاً واطئة ذات أرقام زوجية، وجميع المبحوحين، إلخ، فقال لي بأن كتابه يحيل على الكتلة الضخمة للمقهورين والمبنوذين. أجبته :

ـ كتلة مقهوريك ومنبوذيك ليست سوى مفهوم مجرد. الأفراد وحدهم موجودون، إذا ما وُجد أحد. لقد أعلن أحد اليونانيين بأن «إنسان الأمس ليس إنسان اليوم»، وربما كُنَّا كِلاَنَا، على هذا المقعد في جنيف أو كيمبردج، برهاناً على ذلك.

إذا استثنينا صفحات التاريخ الصارمة، فإن الوقائع الذائعة الصيت هي في غنى عن جمل ذائعة الصيت. هكذا يحاول رجل على أهبة الموت أن يتذكَّر مَحْفُوراً شاهده في طفولته؛ كما يتحدث الجنود المقبلون على معركة عن الوحل وعن الرقيب. أما وضعيتنا فكانت بدون نظير، ولم نكن، والحق يقال، مستعدين لها. تحدثنا عن الأدب ولا مفر؛ وأخشى ألا أكون قد قلت غَيْرَ ما أقوله للصحفيين عادةً. لقد كانت أناي الأخرى Alterego تؤمن باختراع مجازات جديدة واكتشافها؛ وكنت أومِنُ بالمجازات التي تطابق قرابات حميمة وبديهية قَبِلْتُها مخيلتنا : شيخوخة الرجال والغروب، الأحلام والحياة، الزمن الذي يمضي والماء. وعرضتُ عليه هذا الرأي، الذي سيعرضه في كتابٍ، سنوات بعد ذلك.

لم يكن يسمعني إلا لماماً. فجأة، قال :

ـ إذا كُنْتَ أنا، فكيف تُفَسِّر نسيانك سيداً مُسِنّاً لقيتَه وقال لك، سنة 1918، بأنه هو أيضاً كان بورخيس ؟

لم أفكّر في هذا المأزق، فأجبته دون اقتناع :

ـ ربما كان الحدث بالغ الغرابة إلى حد أنني حاولت نسيانه.

وتجشم سؤالاً خَيِّباً :

ـ كيف حال ذاكرتك ؟

لقد أدركت أن رجلاً فاق السبعين لم يكن، بالنسبة لفتى لم يبلغ العشرين بعد، غير ميت على وجه التقريب. أجبته :

ـ أشبه بالنسيان في معظم الأوقات، بيد أنها لا تزال تعثر على ما تُسْأَلُ عنه. إنني أتعلّم اللغة الأنكلوسكسونية ولستُ آخر مَنْ في القسم.

كان حديثنا قد طال أكثر مما يلزم كي يكون حديث حُلم.

وعرتني فكرة مفاجئة. قلت له :

ـ أستطيع أن أبرهن لك حالاً بأنك لا تراني في الحلم. لقد سمعتَ جيداً هذا البيت الشعري الذي لم تَقْرَأْهُ مطلقاً، حسب ما أذكر.

وببطء رَدَّدْتَ البيت المشهور :

L'hydre – Univers tordant son corps écaillé d'astres (*)

شعرت بذهوله الذي يكاد يكون جزعاً. وردّد البيت بصوت خفيض، وهو يتذوق كل كلمة مشعة فيه. همس :

ـ حقاً. لن أستطيع أبداً كتابة بيت كهذا.

لقد وحّدنا هيكُو.

قبل ذلك كان قد رَدّد بحماسٍ، اتذكره الآن، تلك القطعة الموجزة التي يتذكر فيها وُولْتْ ويتْمَانْ ليلةً مُتَقَاسَمَةً إزاء البحر، كان خلالها سعيداً بالفعل. ولاحظتُ :

ـ إذا غنّاها ويتْمَانْ فلأنه رغب فيها دون أن تحدث. والقصيدة تَفْتَنِي إذا تكهّنّا أنها تعبير عن رغبة لا قصة واقعة.

وحملق فيّ، ثم هتف :

ـ إنك لا تعرفه. فويتْمَانْ عاجز عن الكذب.

لا يمر نصفُ قرنٍ هباء. وتحت تأثير حديث شخصين ذوي قراءات متنوعة وأذواق مختلفة، أدركتُ أننا لا نستطيع أن نتفاهم. كُنّا مختلفين بالغ الاختلاف، متشابهين عظيم

(*) الهَدْرة ـ الكون، تلوي جسدها المقشر بالكواكب.

التشابه. وما كان بإمكاننا أن نتخادع، الأمر الذي يجعل الحوار صعباً. لقد كان كل منا نحن الاثنين نسخة ساخرةً من الآخر. وكانت الوضعية مفرطة الشذوذ حتى تستمر مزيداً من الوقت. والنصح والمناقشة لم يكونا مجديين، لأن مصيرهما الحتمي كان أن أصير ما أنا هو.

وبغتةً تذكرتُ تخييلاً لكُولْرِيدْجْ، إذ رأى احدَهُم في المنام نفسَهُ وهو يعبُر الفردوس فيُعطى زهرةً برهاناً على ذلك. وحينما استيقظ كانت الزهرة هناك.

عنّ لي زخرفٌ مشابه فقلت له :

ـ أنْصِتْ. هل لديك نقود ؟

أجابني :

ـ نعم. لدي حوالي عشرين فرنكاً. ولقد دعوت هذه الليلة سِيمُونْ جِيكْلِينْسْكِي للعشاء في الـ Crocodile.

ـ قل لسيمون إنه سيمارس طِبَّه في كَارُوخِي، وسيحسن التصرف كثيراً... الآن هاتِ قطعك النقدية.

وأخرج ثلاث قطع فضية وفلوساً قليلة القيمة. ودون أن يفهم مرادي، قدم لي واحدةً من الأُولَيات.

ومددت له إحدى تلك الورقات النقدية الأمريكية المتهورة، ذات القيمة البالغة الاختلاف والحجم المتشابه، ففحصها بلهفة، وهتف :

ـ أمرٌ غير ممكن. إنها مؤرخةٌ بسنة ألف وتسعمائة وأربع وسبعين.

(بعد ذلك بشهور أخبرني أحدهم بأن أوراق البنك لا تحمل تاريخاً).

وتمكن من القول :

ـ كل هذا معجزة، والمعجز مخيف. إن أولئك الذي كانوا شهوداً على بعث لَعَازِرْ من موته لابد وأنهم أصيبوا بالهلع.

فكرتُ أننا لم نتغيَّر قط، فالإحالات الكتابيتة هي هي.

مزق الورقة النقدية إرباً واحْتَفَظَ بالقطعة المعدنية.

كنت أنوي إلقاءها في النهر. فالقوس الذي سترسمه القطعة الفضية قبل أن تضيع في النهر الفضي كان سَيُكْسِبُ قصتي صورةً مدهشة، بيد أن الحظ لم يشأ ذلك.

أجبت بأن الواقعةَ غيرَ العاديةِ إذا حصلت مرتين فقدت خاصيتها المرعبة. ثم اقترحت عليه أن نلتقي في اليوم التالي، عند عَيْنِ هذا المقعد الموجود في زمنين وفي مكانين.

وافق لِتَوِّه، وقال لي، دون أن ينظر إلى الساعة، بأنه قد تَأَخَّر. كُنَّا كلانا نكذب، وكل منا كان يعلم أن محدثه كاذب. قلت له بأنهم سيأتون لاصطحابي.

سألني :

- لاصطحابك ؟

- أجل. فحينما ستبلغ سني، ستكون قد فقدتَ البصر كلياً على وجه التقريب، ولن تَرَ غير اللون الأصفر والظلال والأضواء. لا تَقْلَقْ، فالعمى التدريجي ليس أمراً مأساوياً، بل هو أشبه بأمسية صيف بطيئة.

ودع أحدنا الآخر دون أن نتلامس. ولم أذهبْ في اليوم التالي. ومن المحتمل أن يكون الآخر قد فعل مثل ذلك.

لقد فكرت طويلاً في هذه الواقعة التي لم أروها لأحد، واعتقد أنني عثرت على مفتاح سِرِّها. إن اللقاء كان حقيقياً، بيد أن الآخر حدثني في الحلم ولذلك تمكن من نسياني. أما أنا فقد حَدَّثْتُهُ في حالة يقظة ولا تزال ذكراه تؤرقني إلى اليوم.

لقد حلم الآخر بي، لكن دون صَرَامَةِ. حلم، وذلك ما أُدْرِكُهُ الآن، بالتاريخ المُسْتَحِيلِ على وَرَقَةِ الدُّولار.

مَوْضُوعَةُ الخَائِن والبَطَل

So the platonic year
Whirls out new right and wrong
Whirls in the old instead;
All men are dancers and their tread
Goes to the barbarous clangour of a gong.

W. B. YEATS : THE TOWER

تحت التأثير الملحوظ لكل من تشِيسْتِرْتُونْ (مبدع الألغاز الأنيقة ومزخرفها) ومستشار البلاط لِيبْنِيز (مبتكر فكرة الانسجام السابق الوجود)، تخيَّلْتُ، في ظهيراتي اللا مجدية، حبكة هذه القصة التي قد أكتبها ذات يوم والتي تبررني قَبْلاً على نحو ما. هناك نقص في التفاصيل، والتصويبات، والتصحيحات؛ كما أن هناك نواحي في القصة لم يَكشف لي حجابها بعد. غير أني ألمحها اليوم، 3 يناير 1944، على النحو التالي :

تجري الأحداث في بلد مقموع وعنيد : پولونيا أو إيرلندا أو جمهورية ڤينسيا أو دولة من دول أمريكا الجنوبية أو البلقان... أو لعلها جرت بالأحرى، لأن الراوي وإن كان معاصراً فإن القصة التي يرويها وقعت عند منتصف أو بداية القرن التاسع عشر. فلنقل (مجاراة للأوفاق القصصية) بأن البلد إيرلندا؛ ولنقل بأن السنة 1824. يدعى الراوي رْيَانْ، وهو ابن حفيد الشاب، البطل، الجميل، المقتول غيلة فِيرْكُوسْ كِيلْپاتْريكْ - الذي نُبِش قبره بشكل غامض، ويُزَيِّنُ اسمُه أشعار بُرُونِينْكَ وهيجو، وينتصب تمثاله فوق ربوة رمادية بين مستنقعات حُمر.

لقد كان كِيلِيْبَاتْرِيكْ متآمراً، بل الضابط السري والظافر للمتآمرين. وشأنه شأن موسى، الذي لمح الأرض الموعودة من أرض مُؤابْ ولم يستطع بلوغها، قضى كِيلِيْبَاتْرِيكْ نحبه عشية التمرد العظيم الذي توقعه وحلم به. لقد أخذت الذكرى المائوية تقترب، وظروف الجريمة لا تزال غامضة، ويكتشف رْيَانْ، المنهمك في كتابة سيرة البطل، أن اللغز يتجاوز حدود محض تحقيق بوليسي. لقد اغتيل كِيلِيْبَاتْرِيكْ داخل مسرح، ولم تعثر الشرطة البريطانية بتاتاً على القاتل. ويؤكد المؤرخون أن هذا الإخفاق لم يكدر صفو سمعتها الطيبة، حيث أنه من المحتمل أن تكون الشرطة ذاتها من دبّر قتله. هناك أوجه أخرى للُغز حيرتْ رْيَانْ، وهذه الأوجه ذات طبيعة دائرية :إنها تبدو وكأنها تكرر أو توفق بين وقائع تنتمي إلى مناطق نائية وعصور متباعدة. هكذا لا يجهل أحد أن رجال الشرطة الذين فحصوا جثة البطل، عثروا على رسالة مختومة يُحَذَّرُ فيها من مجازفة الذهاب إلى المسرح تلك الليلة؛ كما توصل يوليوس قيصر أيضاً، وهو في طريقه إلى المكان الذي تنتظره به خناجر الأصدقاء، ببطاقة لم يقرأها حيث تُكْشَفُ له الخيانة صحبة أسماء الخونة. وفي منامها رأت زوجة قيصر، كَالِيبُورْنْيَا، انهيار صومعة كان مجلس الشيوخ قد كرسها له؛ وعشية موت كِيلِيْبَاتْرِيكْ ، نَشَرَتْ إشاعاتٌ كاذبةٌ ومجهولة المصدر طولَ البلاد وعرضَها أن صومعة كيلكَارفان الدائرية قد التهمتها النيران، وهو ما يمكن اعتباره أشبه بنبوءة، نظراً لأن البطل كان من مواليد كيلكَارفان. ولقد دفعت هذه التوازيات (وغيرها) بين قصة قيصر وقصة متآمر إيرلندي ـ دفعت رْيَانْ إلى افتراض وجود شكل سري للزمن، هو رسم خطوط تتكرر. فكّر في التاريخ العشري الذي تصوره كُونْدُورْسِيه، وفي المورفولوجيات التي اقترحها هِيجِلْ وشبنْكُلِرْ وَفِيكُو، وفي رجال هِسْيُودْ الذين يتدهورون وينحطون من ذَهبٍ إلى حديد. فكر في هجرة الأرواح، هذا المذهب الذي أسبغ الرعب على الأدب السلتي والذي نسبه قيصر ذاته إلى كهان بريطانيين من بلاد الغال؛ كما فكر في أن فِيرْكُوسْ كِيلِيْبَاتْرِيكْ، قبل أن يكون فِيرْكُوسْ كِيلِيْبَاتْرِيكْ ، كان يوليوسْ قيصر. ولقد نجا من هذه المتاهة الدائرية بالعثور على برهانٍ عجيب، برهانٍ رمى به، منذئذ، في متاهات أخرى أشد تعقُّداً وتبايناً : ذلك أن بعض الكلمات التي تلفظ بها متسول تحدث إلى فِيرْكُوسْ كِيلِيْبَاتْرِيكْ يوم موته قد تخيلها شكسبير مقدماً في مأساة «ما كبث». إنه لأمر مدهش بما فيه الكفاية أن ينقل التاريخ عن التاريخ، أما أن ينقل التاريخ عن الأدب فذلك ما يتعذر تصوره... لقد وجد رْيَانْ أن جيمس ألكسندر نُولاَنْ، أقدم رفاق البطل، كان قد ترجم، سنة 1814، درامات شكسبير الرئيسية إلى اللغة الكَائِلِيَّة، ومن جملتها مسرحية «يوليوس قيصر»، كما اكتشف بين الوثائق مخطوط مقالةٍ كتبها نُولاَنْ عن الـ Festspiele

السويسرية : وهي عروض مسرحية هائلة وجَوّالة، تتطلب آلاف الممثلين، وتكرر حقباً تاريخية في ذات المدن والجبال الحقيقية التي جرت أحداثها فيها. وأطلعته وثيقة أخرى غميسةً أن كِيلْپَاتْرِيكْ ، بضعة أيام قبل نهايته، ترأس التجمع الأخير فوقّع أمراً بإعدام خائن حُذِفَ اسمه من المحاضر، مع أن هذا الأمر لم يكن ليوافق طبيعة كِيلْپَاتْرِيكْ المتصفة بالرأفة. لقد حقق رْيَانْ في الأمر (وهذا التحقيق هو إحدى هنات حبكتي) وتمكن من فك رموز اللغز.

قُتل كِيلْپَاتْرِيكْ داخل مسرح، بيد أن المدينة كلهاكانت مسرحاً، والممثلون كانوا جماً غفيراً، وتواصل العرض الذي تَوَّجَ بموته ليالي وأياماً عديدة. هاكم ما حدث :

في الثاني من غشت 1824 اجتمع المتآمرون. كان البلد مهيأ لإنجاز التمرد؛ بيد أن شيئاً يحدث أن يخفق دائماً : فقد كان هناك وسط الجمع خائن. كلف كِيلْپَاتْرِيكْ رفيقه نُولاَنْ بمهمة اكتشاف الخائن، فأنجز هذا مهمته : أعلن في غمرة الاجتماع أن الخائن كان كِيلْپَاتْرِيكْ ذاته.ولقد برهن على صدق دعواه بدليل دامغ، فحكم المتآمرون على رئيسهم بالموت. ووقع هذا على الحكم بنفسه، لكنه ناشد ألا يسيء العقاب الذي سينزل به إلى الوطن.

عندئذ تصور نُولاَنْ مخططا غريباً. كانت إيرلندا تعبد كِيلْپَاتْرِيكْ؛ وكان أبسط شك في خزيه سيعرض التمرد للخطر؛ فاقترح نُولاَنْ مخططاً يجعل من إعدام الخائن أداة لتحرر الوطن. أوعز أن يموت المحكوم عليه بالإعدام على يد قاتل مجهول، في ظروف درامتيكية مقصودة، ستبقى راسخة في ذاكرة الشعب فتُعَجِّل بحدوث التمرد. وأقسم كِيلْپَاتْرِيكْ أن يُسْهم بنصيبه في المخطط، الذي يعطيه فرصة التكفير عن خطيئته ويُقنِّن موته.

بتأثير من العجلة، لم يكن نُولاَنْ قادراً على ابتكار كل ظروف الإعدام المتعدد، فاضطر إلى انتحال أفكار مسرحي آخر، هو الإنجليزي العدو وليام شكسپير. وهكذا قام بالتدريب على مشاهد من «ماكبث» ومن «يوليوس قيصر» واستغرق التمثيل العلني والسري عدة أيام. دخل المحكوم عليه بالإعدام إلى دبلن فناقش وعمل وصلى وأدان وتلفظ بكلمات شجية - وكانت كل حركة من هذه الحركات التي ستعكس المجد قد وُضعت سلفاً من طرف نُولاَنْ. تعاون مئات الممثلين مع البطل، وكان دور بعضهم معقداً، بينماكان دور الآخرين موقوتاً. ولقد بقيت الأمور التي نطقوا بها أو فعلوها مسجلة في كتب التاريخ، وفي ذاكرة إيرلندا المتهيجة. كما أثرى كِيلْپَاتْرِيكْ (الذي اكتسحه هذا المصير المرسوم بدقة وكان يَكْفُر عنه ويَبَدِّدُه) أكثر من مرة نَصَّ قاضيه بأفعال وعبارات مرتجلة. هكذا تتابعت في الوقت المحدد

وقائع هذه المسرحية المأهولة إلى أن حل يوم سادس غشت 1824 فانكشفت، في شرفة مسرح ذات ستائر جنازية تتخيل مسبقا ستائر شرفة لِنْكَولْنْ.، رصاصة مشتهاة نفذت إلى صدر الخائن والبطل الذي تمكن بشق الأنفس من التلفظ ببعض كلمات متوقَّعة، بين دفقيتن مفاجئتين من الدم.

لقد كانت المشاهد التي تحاكي شكسبير، في أثر نُولاَنْ، أقل دراماتيكية؛ ويظن رْيَانْ أن الكاتب قد أدرجها حتى يتمكن شخص، في مستقبل الأيام، من الوقوع على الحقيقة. كما يتصور أنه هو أيضاً جزء من حبكة نُولاَنْ... وبعد تردد عنيد، قرر الإبقاء على ما اكتشفه طي الكتمان. لقد نشر كتاباً خصُصه للإعلاء من شأن البطل؛ وليس من المستبعد أن يكون هذا الأمر متوقَّعاً بدوره.

پْيِيرْ مِينَارْ، مؤلّف «الكيخُوطِي»

يمكن تعداد الآثار الظاهرة التي خَلّفَها هذا الروائي بسهولة وإيجاز. ومع ذلك فلا يجوز التسامح بصدد أعمال الحذف والإضافة التي ارتكبتها مدام هَنْرِي بَاشْولِيي في قائمة مضللة لم تستنكف صحيفة يومية، لايخفى ميلها الپروتستانتي، من إيقاع قرائها المأسوف عليهم في حبائلها - رغم أن هؤلاء كانوا قلة، وكالڤينيين إن لم يكونوا ماسونيين ومختونين. لقد نظر أصدقاء مِينَارْ الحقيقيون إلى هذه القائمة برعب وحتى بنوع من الحزن. ومع أننا اجتمعنا إزاء رخامته الختامية أمس، وسط أشجار السرو العابسة، فها إن الخطأ يحاول أن يكدر ذاكرته... من المؤكد أن وضع تصويب مختصر أصبح أمراً ضرورياً.

إنني أدرك أنه من السّهل جداً دحض سلطتي الفقيرة. ومع ذلك أرجو ألاّ أمنع من ذكر شهادتين نابهتين. فلقد رأت بَارُونَة دُوبَاكُورْ (التي كان لي شرف لقاء الشاعر المأسوف عليه في «جُمُعَاتِها» التي لا تُنسى) أنه من اللائق الموافقة على الصفحات التالية. أما الكُونْتِيسَة دُوبَانْيُورِيجْيُو ، وهي من أشد النفوس رقة في إمارة مُونَاكُو (والآن، فِي پِيتْسْبُورْكْ، بولاية پنسلڤانيا، على إثر زواجها الأخير من المحسن العالمي سِيمُونْ كُوتْـزِشْ، المفترى عليه، وأسفاه، من طرف ضحايا مناوراته التي لا مأرب لها) فقد قدّمت قرباناً «للصدق والموت» (وهذه كلماتها) تصوُّنها الوقور المميز لها فمنحتني رضاها بدورها، في رسالة مفتوحة نشرت بمجلة «لُوكْس». وأعتقد أن هاتين البراءتين ليستا غير كافيتين.

لقد قلت بأن آثار مِينَارْ الظاهرة يمكن أن تحصى بسهولة. وحين فحصت ملفاته الخاصة بعناية، تَثَبّتُّ من كونها تتضمن المواد التالية :

أ) سُونِيتّه رمزية نُشرت مرتين (مع فروق) في مجلة La Conque (عددا مارس واكتوبر 1899).

ب) مُونُوغرافية حول إمكان إقامة معجم شعري يتألف من مفاهيم لا تكون مرادفات أو تعريضات من قبيل تلك التي تزود كلامنا اليومي بالمعلومات «وإنما هي أشياء مثالية ابتكِرَتْ حسب أوفاق وعُيِّن لها تلبية حاجاتنا الشعرية» (نِيمْ، 1901).

جـ) مونوغرافية حول «بعض الصلات والقرابات» بين فكر دِيكَارْتْ وليبْنِيزْ وجُونْ وِيلْكِنْزْ (نِيمْ، 1903).

د) مونوغرافية حول كتاب لِيبنيزْ «Characteristica Universalis» (نيم، 1904).

هـ) مقالة تقنية حول إمكانية تحسين لعبة الشطرنج بواسطة إلغاء أحد بيادق الرخ. إن مِينَارْ يقترح هذا التجديد، ويوصي به، ويناقشه، ثم يطْرحه في النهاية.

و) مونوغرافية حول «Ars magna generali» لرامُونْ لُولّ (نيم، 1906).

ز ترجمة، مصحوبة بمقدمة وهوامش، لكتاب رُويْ لُوبِيتْ دِي سِيكُورَا

«Libro de la invención liberal y arte del juego del Axedrez»

(باريس، 1907).

ح) مسودات مونوغرافية حول المنطق الرمزي عند جُورْجْ بُولْ.

ط) فحص القوانين الأساسية لعروض النثر الفرنسي، مع أمثلة مستمدة من سَانْ سِيمُونْ :

– Revue des Langues romanes, montpellier, octobre, 1909.

ي) رد على لُوكْ دِيرْتَانْ (الذي أنكر وجود القوانين السالفة الذكر) مصحوب بأمثلة من لُوكْ دِيرْتَانْ :

– Revue des Langues Romanes, Montpellier, Décembre, 1909

ك) مخطوط ترجمة لكتاب كِيفِيدُو الموسوم «La aguja de navegar cultos» تحت عنوان «La boussole des précieux».

ل) مقدمة كاطالوج لمعرض محفورات كَارُولُوسْ هُورْكَاذْ (نيم، 1914).

م) كتاب «Les problèmes d'un problème» (باريس، 1917) الذي يناقش، في تتابع زمني، مختلف الحلول التي أعطيت للمشكل الشهير، مشكل آخِيلْ والسلحفاة. وقد ظهرت إلى حد الآن طبعتان من هذا الكتاب؛ وتحمل الطبعة الثانية، في شكل استهلال، وصيّة لاَيْبْنِيزْ «Ne Craignez Point, monsieur, La tortue»(*) كما تَنَقَّح الفصولَ المخصصة لكل من رَاسِلْ وَدِيكَارْتْ.

*) «سيدي، لا تخش السلحفاة».

ن) تحليل عنيد لـ «العادات التركيبية» لـدى تُولِي (.N.R.F، مـارس، 1921). وأذكر أن مِينَـارْ صَرَّح بأن ممارسة الرقابة والمدح عمليتان عاطفيتان لاصلة لهما بالنقد.

ص) نقل قصيدة پول ڤـاليري «المقبرة البحريـة» إلى العروض الأسكنـدراني (.N.R.F، ينـاير، 1928).

ع) قدح في پُولْ ڤَالِيرِي، ضمن «أوراق لإلغاء الواقع» لجَاكْ رُبُولْ. (وهذا القدح، كما يجب أن نقول بين قـوسين، هـو النقيض التـام لرأيـه الحقيقي في ڤَـالِيري. وقـد فهمـه هـذا الأخير كذلك، فلم تتعرض صداقتهما القديمة للخطر).

ف) «تعريف» للكُونْتِيسـة دُو بَـانْيُورِ يجّيُـو، في «السِّفْر الظـافر» ـ والعبـارة لمعـاون آخر هـو كَابْرِييِلِي دَانُوزْيُو ـ الذي يطبع سنوياً من طرف هذه السيدة لتقويم تزييفات الصحـافـة التي لا مفر منها، ولتقديم صورة صادقـة «للعـالم ولإيطـاليـا» عن شخصهـا الـذي يتعرض دوماً (بسبب جمالها وتمثيلها) لتأويلات خاطئة أو متسرعة.

ض) حلقة سُونيتات بديعة مخصصة للبارونة دُوبَاكُورْ (1934).

ق) مخطوط لائحة بأشعار تستقي فعاليتها من طرق تنقيطها.[1]

تلك هي آثار مِينَارْ الظـاهرة، حسب النظـام الزمني لتتـابعها (دون حـذف يـذكر سوى بعض السُّونيتات الظرفية التي نُظِمت خصيصاً لألبوم مدام هنري بَاشُولِيي المضيـاف أو الشَّرِه).
وانتقل الآن إلى أثره الآخر: أثره الخفي، المقدام بلا حدود، والذي لا نظير لـه مع أن إنجـازه لم يكتمل ـ فآهٍ من الإمكانات البشرية !. يتألف هذا الأثر ـ ولعله من أكثر آثار عصرنـا دلالـة ـ من الفصلين التـاسع والثـامن والثلاثين من القسم الأول من ضون كيخوطي، وكـذا من مقطع من الفصل الثـاني والعشرين. إنني أعلم أن هـذا التـأكيـد هو من قبيل الهراء؛ بيـد أن إنصـاف «الهراء» هو الهدف الرئيسي لهذه الحاشية.[2]

لقد أوحى إلي بهذه المهمـة نَصَّان ذوا قيمـة غير متسـاويـة. أحـدهمـا هو ذلـك المقطع اللغوي الذي كتبـه نُوڤَـالِيسْ ـ المرقم بـ 2005 في طبعـة دْرِيسْـدَنْ ـ والـذي يعـالج بإجمـال موضوع المماثلة التامة لكـاتب معين. والنص الآخر هو أحـد هـذه الكتب الطفيليـة التي تضع المسيح في جـادة، أو هَـامْلِتْ في كَـانِيبْيِيرْ أو ضـون كيخـوطي في وُولْ سْتْرِيتْ. إن مِينَـارْ،

1) لقد أحصت مدام هنري بـاشوليي أيضـاً ترجمـة حرفيـة للترجمـة الحرفيـة التي وضعهـا كيڤيـدو لكتـاب سـان فْرَانْسْوَا دِي سَـالْ « Introduction à la vie dévote »، غير أنه لا أثر لهذا العمل في خزانة كتب پْيِيرْ مِينَارْ. ولابد أن الأمر يتعلق بمزحة صـدرت عن صديقنا وأسيء فهمها.

2) كانت لدي أيضاً نية ثانوية في وضع صورة شخصية لپْيِيرْ مِينَارْ. لكن، كيف التجرؤ على منافسـة الصفحات الذهبية التي تهيؤها ـ حسب ما قيل لي ـ بارونة دو باكور أو قلم كارولوس هوركاد المرهف والدقيق ؟

كرجل رفيع الذوق، كان يستنكر هذه المساخر التي لا طائل وراءها والتي لم تكن لتصلح - كما كان يقول - إلا لإرضاء الرغبة الفوغائية في المفارقة التاريخية أو (وهذا أدهى وأمر) لتسليتنا بالفكرة البدائية القائلة بأن كل العصور متشابهة أو متباينة. على أن الأهم من ذلك فيما بدا له هو مخطط دُوديه الشهير، وإن كان إنجازه متناقضاً وسطحياً : مخطط التوفيق في صورة واحدة، هي صورة «طَارْطَارِينْ»، بين «النبيل الأريب» وخادمه... إن الذين لمّحوا إلى أن مِينَارْ صرف حياته في كتابة كيخوطي معاصر، إنما افتروا على ذكراه الصافية.

فهو لم يكن يريد تأليف كيخوطي آخر - لأن هذا أمر سهل المنال - وإنما الكيخوطي ذاته. وإنه من غير المجدي أن نضيف أنه لم يحاول قط نقل الأصل نقلاً آلياً، كما لم يكن قد عزم على نسخه. بل كان طموحه العجيب أن يعيد إنتاج بضع صفحات تتطابق - كلمة كلمة، وسطراً سطراً - مع صفحات مِيكِيلْ دِي ثِرْفَانْتِيسْ.

لقد كتب إليّ من بَايُونْ، في 30 سبتمبر 1934، يقول : «إن غرضي محض مذهل. وليس الحد النهائي لبرهنة تيولوجية أو ميتافيزيقية - كالعالم الخارجي، أو الله، أو السببية، أو الأشكال الكونية - بأقل قدماً وشيوعاً من روايتي المتداولة. والفرق الوحيد هو أن الفلاسفة ينشرون في أسْفَار سائغة المراحل الوسطى من عملهم، أما أنا فقد قررت إضاعتها». وفعلاً، لم تتبق أية مسودة تشهد على هذا العمل الذي استغرق السنين.

كان المنهج الأولي الذي تخيله بسيطاً نسبياً. أن يتقن اللغة الاسبانية، ويستعيد العقيدة الكاثوليكية، ويحارب المُورُوسْ أو الترك، وينسى تاريخ أوروبا فيما بين سنوات 1602 و 1918، أي يصير مِيكِيلْ دي ثِرْفَانْتِيسْ. لقد درس پْيِيرْ مِينَارْ هذه الطريقة (وأنا أعلم أنه قد أفلح في إجادة إسپانية القرن السابع عشر بأمانة كافية) لكنه هجرها، بسبب سهولتها. سيقول القارئ : بالأحرى استحالتها. أجل، بيد أن المهمة كانت سلفاً مستحيلة. ومن بين كافة الطرائق المستحيلة لإنجازها، فإن هذه الطريقة كانت أقلها أهمية. لقد بدا له نقصاناً وتصغيراً أن يصيرَ في القرن العشرين ذلك الروائي الشعبي الذي عاش في القرن السابع عشر، كما بدا له التحول إلى ثِرْفَانْتِيسْ للوصول إلى الكيخوطي عملاً أقل وعورة - وبالتالي، أقل أهمية - من مواصلة كونه پْيِيرْ مِينَارْ والوصول إلى الكيخوطي من خلال تجارب پْيِيرْ مِينَارْ ذاته (فلنقل مارين إن هذه القناعة جعلته يستبعد التمهيد الأوتوبيوغرافي من القسم الثاني من ضون كيخوطي. ذلك أن إدراج هذا التمهيد كان يعني خلق شخصية أخرى - هي شخصية ثرفانتيس - لكنه كان سيعني تقديم الكيخوطي مرتبطاً بهذه الشخصية وليس بمِينَارْ. ومن الطبيعي أن

هذا الأخير رفض هذه السهولة). أقرأ في مكان آخر من رسالته : «إن مشروعي ليس صعباً من حيث جوهره. يكفيني أن أكون خالداً حتى أنجزه إلى غايته». فهل أعترف بأنني أتخيل غالباً أنه قد أفلح وأنجز مهمته وأنني أقرأ الكيخوطي ـ كاملاً ـ كما لو كان مِينَارْ هو الذي ابتكره ؟. لقد تعرفت، في بعض الأماسي، وأنا أتصفح الفصل السادس والعشرين ـ وهو الفصل الذي لم يحاول مِينَارْ كتابته ـ على أسلوب صديقنا، وسمعت، في هذه الجملة البديعة، صوتاً أشبه بصوته : «حوريات الأنهار، والصدى المؤلم والمبتل». إن هذا الوصل الفعال بين نعت معنوي ونعت مادي يذكرني ببيت لشِكْسْپِيرْ ناقشناه ذات مساء :

Where a malignant and a turbaned Turk...(*)

سيقول قارئنا : ولماذا الكيخوطي بالضبط ؟. فهذا الاختيار لو صدر عن شخص إسپاني لما كان له أن يكون متعذر الشرح؛ بيد أنه متعذر الشرح، لا ريب، حين يصدر عن شاعر رمزي من «نِيم»، متشيع أساساً لپُو، الذي أنجب بُودْلِيرْ، الذي أنجب مَالاْرْمِيه، الذي أنجب ڤاليري، الذي أنجب إدْمُونْ تِيسْتْ. إن الرسالة التي سبقت الإشارة إليها تُوضِّح هذه النقطة. يشرح مِينَارْ : «يهمني الكيخوطي بصورة عميقة، بيد أنه لا يبدو لي ـ كيف أُعَبِّر يا ترى ؟ ـ غير قابل للتلافي. إنني لا أستطيع أن أتخيل الكَوْنَ دون صيحة إدْكَارْ آلآنْ پُو :

Ah, bear in mind this garden was enchanted !(*)

ودون « le bateau ivre » أو الـ « Ancient mariner »، بيد أني أعرف نفسي قادراً على تخيله دُون الكيخوطي (وأنا أتحدث، بطبيعة الحال، عن قدرتي الشخصية وليس عن الصدى التاريخي للآثار). فالكيخوطي كتاب عارض، وليس ضرورياً. بإمكاني أن أترصد تأليفه، كما أستطيع كتابته دون السقوط في تحصيل الخاصل. لقد قرأته في الثانية أو الثالثة عشرة من عمري، ربما في نصه الكامل. ثم أعدت قراءة بعض الفصول بإمعان، تلك الفصول التي لن أحاول كتابتها في الوقت الراهن. درست كذلك المخلَّلاَت entremeses، والمسرحيات الفكاهية، و«الكَلاَطِيَّة» La Galatea، والقصص النموذجية، وأعمال پِيرْسِيلِسْ وسِيكِيسْمُونْدَا الشاقة ولا ريب، وكذا «الپَرْنَاسُو». إن ما أتذكره عموماً عن الكيخوطي، وقد بَسَّطه النسيان واللا مبالاة، يمكن أن يعادل صورة مسبقة وغامضة عن كتاب لم يُكتب بعد. إذا سلمنا بهذه الصورة (التي لا يمكن أن ينكرها عليٍّ، عن حق، أي إنسان) صارت مشكلتي، ولا جدال، أشد

*) حيث تركيٌّ خبيث ومُعَمَّم...

*) آه، لا تنس، هذه الحديقة كانت مسحورة.

صعوبة من مشكلة ثِيرْڤانْتِيسْ. ذلك أن سلفي الرِّضِي لم يرفض قط مساعدة الحظ : فقد ألف عمله الخالد à la diable تقريباً، مدفوعاً بقوى جمود اللغة والخلق. أمّا أنا، فقد عاقدت الواجب الخفي على إعادة تشكيل عمله التلقائي حرفياً. يتحكم في لعبتي المتوحدة قانونان قطبيان : يتيح لي أولهما فرصة إحداث تنويعات من نمط شكلي أو سيكلوجي؛ ويرغمني الثاني على تقديمها فداء للنص «الأصلي» وأبرهن على هذه الإبادة ببراهين لا تقبل الدحض... ويجب أن نضيف إلى هذه الموانع المصطنعة مانعاً آخر، هو المانع الفطري. فقد كان تأليف الكيخوطي في بداية القرن السابع عشر مهمة معقولة وضرورية، ولعلها لا رجعة فيها؛ أما في بداية القرن العشرين فإنها تكاد تكون مستحيلة. ذلك أنه لم يكن هباء مرور ثلاثمائة سنة، حافلة بوقائع بالغة التعقيد، سأكتفي بذكر واقعة واحدة منها : ظهور الكيخوطي ذاته».

ورغم هذه العقبات الثلاث، يتسم الكيخوطي الشذراتي الذي وضعه مِينَارْ بحذق أكبر من حذق ذلك الذي ألفه ثِيرْڤانْتِيسْ. لقد كان هذا يوازن بخشونة بين قصص الفروسية والواقع الجهوي الفقير لبلاده، بينما اختار مِينَارْ كـ «واقع» بلد «كَارْمِينْ» إبان عصر «لِيبَانْطِي» ولُوبِي دِي ڤِيكَا. أية أقوال أو أفعال إسپانية مميّزة لم يكن هذا الاختيار لينصح بها مُورِيسْ بَارِيسْ أو الدكتور رُوذْرِيكِيثْ لاَرِّيطا ! لقد تملص منها مِينَارْ بشكل لا تكلف فيه. فلا نجد في كتابه طوائف غجرية، ولا غزاة، ولا نُسّاك، ولا فيليپ الثاني، ولا إعدام بالحرق : كان يهمل اللون المحلي ويلغيه. وهذا الازدراء يؤشر إلى شعور جديد للرواية التاريخية. هذا الازدراء يُدين «سَلاَمْبُو» دون استئناف.

وليس أقل ادهاشاً من ذلك أن نتأمل فصولاً معزولة. فلنفحص، على سبيل المثال، الفصل الثامن والثلاثين من القسم الأول «الذي يعالج الخطبة الغريبة التي ألقاها ضون كيخوطي عن الأسلحة والكلمات». من المعلوم أن ضون كيخوطي (مثله مثل كِيڤِيدُو في المشهد المشابه والمتأخر من كتابه « La hora de todos ») أصدر حكماً ضد الكلمات ولصالح الأسلحة. لقد كان ثيرڤانْتِيسْ عسكرياً سابقاً، ولذا فعثرته مفهومة. لكن كيف يرتكب ضون كيخوطي پْيِيرْ مِينَارْ - وهو الرجل المعاصر لكتاب « La trahison des clercs » ولبِرْتْرَانْدرَاسِلْ - هذه الحذلقات المبهمة مجدداً ! لقد رأت مدام بَاشُولْيِي في ذلك خضوعاً بديعاً ونمطياً من طرف الكاتب لسيكلوجية البطل؛ ورأى فيه آخرون (وقد حُرِموا تماماً من نفاذ الفكر) نَسْخاً للكيخوطي؛ بينما رأت البارونة دُوبَاكُورْ فيه تأثير نِيتْشِه. ولست أدري هل أجرؤ أن أضيف إلى هذا التأويل الثالث (الذي اعتبره متعذر الدحض) تأويلاً رابعاً يتلاءم بقوة مع تواضع پْيِير

مِينَارْ الذي يكاد يكون إلهياً : أعني عادته الانتقادية أو الساخرة في نشر أفكار معارضة حرفياً للأفكار التي يُؤْثِرها (فلنتذكر مجدداً أهجيته في پولْ ڤاليري، المنشورة في ورقة جاك رُبُولْ السريالية الفانية). إن نص ثِيرْڤانْتِيسْ ونص مِينَارْ متشابهان من الناحية اللفظية، بيد أن الثاني أشد ثراء بما لا حصر له (سيقول المشنعون : بل أكثر التباساً؛ بيد أن الالتباس غنى).

إنه لكشف أن نقارن ضون كيخوطي الذي كتبه مِينَارْ، بذلك الذي كتبه ثيرڤانتيس. فلقد كتب هذا مثلاً («ضون كيخوطي» : القسم الأول، الفصل التاسع) :

«...الحقيقة التي التاريخ أمها، منافس الزمن، ومدّخر الأفعال، وشاهد الماضي، ومثال الحاضر ونصيحته، والمحذر مما سيأتي».

لا يعدو هذا التعداد، وقد أملي في القرن السابع عشر ومن طرف «النابغة غير المتضلع» ثيرڤانتيس، أن يكون إطراء بلاغياً للتاريخ. وعوض ذلك كتب مِينَارْ :

«...الحقيقة التي التاريخ أمها، منافس الزمن، ومدّخر الأفعال، وشاهد الماضي، ومثال الحاضر ونصيحته، والمحذر مما سيأتي».

فالتاريخ أم الحقيقة : إن الفكرة مذهلة. ذلك أن مِينَارْ، معاصر وِلْيَامْ جِيمِسْ، لا يعرّف التاريخ بكونه استقصاء للواقع وإنما بكونه أصلاً له. والحقيقة التاريخية، في اعتباره، ليس ما حدث وإنما ما نُقَدِّر أنه حدث. إن عبارات الختام ـ «ومثال الحاضر ونصيحته، والمحذر مما سيأتي» ـ هي عبارات براجماتية بصورة لا لبس فيها.

والتضاد بين الأسلوبين حاد بدوره. فأسلوب مِينَارْ الذي يحفل بالتعابير والألفاظ المهجورة ـ والأجنبي في نهاية المطاف ـ يعتلُّ ببعض التكلف. بينما يختلف الأمر بالنسبة لسلفه، الذي يستعمل الإسپانية ا لشائعة في عصره بظرف وخفة دم.

ليس هناك من تدريب عقلي لا يكون بدون جدوى في النهاية. هكذا يكون كل مذهب فلسفي، في بدايته، وصفاً محتملاً للكون؛ وتدور عجلة السنين فيغدو مجرد فصل ـ إن لم يكن مجرد فقرة أو اسم ـ في تاريخ الفلسفة. ويتجلى هذا التقادم بشكل أوضح في الأدب. لقد قال لي مِينَارْ بأن الكيخوطي كان كتاباً ممتعاً قبل كل شيء؛ أما الآن فأصبح مُبَرِّراً لشرب أنخاب وطنية، وإعلان عجرفة نحوية، وإصدار طبعات أنيقة سفيهة. ألاَ إنَّ المجدَ سوءُ فهم، ولعله أدهى حالات سوء الفهم.

لا جديد في هذه البراهين العدمية؛ والفريد حقاً هو القرار الذي اشتقه پْيِيرْ مِينَارْ منها. لقد قرر أن يسبق الزهو الذي يترصد كل متاعب الإنسان، فشرع في عمل بالغ التعقيد وباطل

مسبقاً. هكذا خصص وساوسه وأسهاره لإعادة إنتاج كتاب موجود سلفاً، وفي لغة أجنبية. ضاعف المسودات، وصحح بثبات ثم مزق آلاف الصفحات المخطوطة.[3] لم يسمح لأي كان بالاطلاع عليها وحرص على ألا تبقى إرثاً من بعده. سدى حاولت إعادة تركيبها.

لقد فكرت أنه من المشروع اعتبار الكيخوطي «النهائي» طِرْساً ينبغي أن تشف فيه آثار كتابة صديقنا «السابقة» ـ تلك الآثار الدقيقة وغير المتعذرة الفك. ولسوء الحظ فليس سوى پْيير مِينَارْ ثانٍ من يستطيع، بواسطة استثمار عمل السابق، نبش قبور هذه الطروادیات ليبتعثها حية...

كتب إليَّ أيضاً : «ليس التفكير والتحليل والابتكار أفعالاً شاذة، بل إنها تشكل التنفس العادي للذكاء. لذلك فتمجيد الإنجاز الظرفي لهذه الوظيفة، واكتناز الأفكار القديمة وأفكار الغير، وتذكرنا بذهول غير المصدق أن الـ Doctor universalis قد فكر ـ يعني الاعتراف بفتورنا وبربريتنا. فكل إنسان يجب أن يكون قادراً على كل الأفكار. وأظن أن سيكون كذلك في المستقبل».

لقد أثرى مِينَارْ (ربما دون أن يدري) فنّ القراءة المسكوك والخَلِق بواسطة تقنية جديدة : تقنية المفارقة التاريخية المتعمدّة والإسنادات الخاطئة. وهذه التقنية التي لا حصر لتطبيقها، تدعونا إلى تصفح «الأوديسا» كما لو كانت قد ظهرت بعد «الإنيدا»، وكتاب مدام هنري باشولبي « Le jardin du centaure » كما لو كان كتاب مدام هنري باشولبي. إنها تقنية تعمل على إعمار الكتب الأشد هدوءاً بالمغامرات. ألا يُعتبر إسناد كتاب «محاكاة المسيح» إلى لُوي فِرْدِينَانْ سِلِينْ أو جِيمِسْ جُويْسْ تجديداً كافياً للنصائح الروحية الهزيلة التي يتوفر عليها هذا الأثر ؟

نِيمْ، 1939.

3) أتذكر دفاتره المخططة، وتشطيباته السوداء، ورموزه المطبعية الخاصة، وكتابته المتناهية الصغر. لقد كان يحبذ التجوال في أرياض نِيمْ عند حلول المساء؛ حيث يصطحب معه في العادة دفتراً ويوقد ناراً مرحة.

مكْتَبَةُ بَابِـل

By this art you may contemplate the variation of 23 letters...

the Anatomy of Melancholy
Part 2, Sect. II, mem. IV

يتألف الكون (الذي يسميه آخرون المكتبة) من عدد غير محدد، وربما لا حصر له، من أروقة مسدسة الزوايا، بها آبار تهوية واسعة في الوسط، محاطة بحواجز بالغة الانخفاض. انطلاقاً من أية واحدة من هذه المسدسات الزوايا، يمكن رؤية الطوابق السفلى والعليا دونما نهاية. إن توزيع الأروقة غير متنوع. ذلك أن عشرين رفاً طويلاً، بمعدل خمسة أرفف في كل ناحية، تغطي كافة الجوانب، ما عدا جانبين اثنين؛ وارتفاعها، الذي هو ارتفاع الطوابق ذاتها، لا يتجاوز قامة كتبي متوسط الهيأة. يؤدي كل منفذ من المنافذ إلى دهليز متعرج، يصب في رواق آخر، شبيه بالرواق الأول وبجميع الأروقة. إلى يمين الدهليز ويساره توجد حجرتان ضئيلتان : إحداهما تسمح بالنوم في هيأة واقف، وتسمح الأخرى بإرضاء الحاجات الجسدية. من هناك يمر السلم الحلزوني، الذي يهوي ويرتفع حتى لا يطاله النظر. وتوجد بالدهليز مرآة تضاعف الظواهر بأمانة. ويستنتج الناس من تلك المرآة أن المكتبة ليست غير متناهية (إذ لو كانت كذلك فعلاً، فما جدوى هذه المضاعفة الوهمية ؟). أما من جهتي، فإنني أُفَضِّل أن أحلم بأن هذه الأسطح المصقولة تُجسِّم اللا متناهي وتَعِدُ به... يصدر النور عن بضعة فواكه دائرية تُسمى مصابيح، في كل مسدس زوايا مصباحان وضعا بشكل اعتراضي، وهما ينشران ضوءاً غير كافٍ، ولا ينقطع.

ككل رجال المكتبة، سافرت في شبابي؛ حججت بحثاً عن كتاب وربما عن فهرس الفهارس. والآن وقد غدت عيناي غير قادرتين تقريباً على فرز ما أكتبه، فإني أستعد للموت

على بعد فراسخ قليلة من مسدس الزوايا الذي ولدت فيه. فإذا مت، لن أعدم الأيدي الرؤوفة التي ستلقي بي من فوق الحاجز : سيكون قبري الهواء المتعذر السَّبر، وسيتغلغل جسمي طويلاً، ويتعفن، وينحلّ في الريح التي تتولد عن السقوط النهائي. إنني أؤكد أن المكتبة لا نهاية لها. يعتقد المثاليون بأن الحجرات المسدسة الزوايا هي الشكل الضروري للفضاء المطلق، أو لحدسنا بالفضاء على الأقل؛ وهم يُقدّرون بأنه من غير الممكن تصور حجرة مثلّثة أو خماسية الزوايا (يزعم المتصوّفة أن الشطحة تكشف لهم حجرة مستديرة بها كتاب مستدير ذو كعب متواصل يدور بالجدران كلها؛ بيد أن شهادتهم مشكوك فيها، وكلماتهم غامضة : فهذا الكتاب الدوري هو الله). فلأكتف اللحظة بترديد الفتوى الكلاسيكية : إن المكتبة دائرة، مركزها المضبوط هو أي مسدس زوايا، ومحيطها متعذر الإدراك.

لكل جدار في كل مسدس زوايا خمسة أرفف؛ يحمل كل رف اثنين وثلاثين كتاباً من نفس الحجم؛ لكل كتاب أربعمائة وعشر صفحات؛ وفي كل صفحة أربعون سطراً، وفي كل سطر حوالي ثمانين حرفاً أسود اللون. توجد حروف أيضاً على ظهر كل كتاب؛ وهذه الحروف لا تشير ولا تشخص مسبقاً ما سوف تقوله الصفحات. إنني أعرف أن عدم التلاؤم هذا قد بدا غامضاً في بعض الأحيان. وقبل تلخيص الحل (الذي قد يكون اكتشافه، رغم انعكاساته المأساوية، حدثاً رئيسياً في التاريخ) أريد أن اتذكر بعض القواعد.

القاعدة الأولى : إن المكتبة موجودة ab aeterno. ولا يمكن لفكر عاقل أن يشك في هذه الحقيقة، التي من فروعها الملازمة الخلود المستقبل للعالم. إنه من المحتمل أن يكون الإنسان، أو الكتبي الناقص، من صُنع الحظ أو من عمل خَالِقِينَ سيئي الطوية، أما الكون، بِعُدّتِه الأنيقة من الأرفف، وأسفاره اللغزية، وسلالمه التي لا تكِلُّ بالنسبة للمسافر، ومراحيضه بالنسبة للكتبي الجالس، فلا يمكن أن يكون سوى صنيعة إله. ولقياس المسافة التي تفصل الإلهي عن البشري، يكفي مقارنة هذه الرموز الفظة والمترددة التي ترسمها يدي الواهنة على غلاف كتاب، بالأحرف العضوية التي في داخله : فهي منتظمة، دقيقة، ذات سواد عميق، ومتناظرة بشكل لا يضاهى.

القاعدة الثانية : عدد الرموز الكتابية خمسة وعشرون.[1] لقد كانت هذه الملاحظة هي ما مكّن، منذ حوالي ثلاثمائة سنة، من صياغة نظرية عامة للمكتبة، ومن حل المشكل الذي

1) لا تحتوي المخطوطة الأصل للنص الحالي على أرقام أو أحرف البدء الكبيرة. واقتصرت علامات الوقف على الفاصلة والنقطة. إن هاتين العلامتين، فضلاً عن الفضاء وأحرف الأبجدية الاثنين والعشرين، هي الرموز الخمسة والعشرون الكافية التي أحصاها المجهول (ملاحظة الناشر).

لم يستطع أي تخمين حله بصورة مرضية : مشكل الطبيعة الشائهة والسديمية لكل الكتب على وجه التقريب. أحد هذه الكتب، وقد عثر عليه أبي في مسدس زوايا من دائرة خمسة عشر أربعة وتسعون، يتضمن الأحرف م ص د فقط مكررة بفساد من السطر الأول إلى الأخير. وهناك كتاب آخر (يُرْجَع إليه كثيراً في هذه المنطقة) هو محض متاهة أحرف، غير أننا نجد، في الصفحة ما قبل الأخيرة، هذه الجملة : أَيُّهَا الزَّمَنُ أَهْرَامُكَ. أصبح معروفاً أنه في مقابل سطر معقول، أو معلومة مضبوطة، هناك فراسخ وفراسخ من تنافر أصوات أخرق، واسهاب لفظي فارغ، وتناقضات. (أعرف منطقة وعرة يرفض فيها الكتبيون عادة البحث في الكتب عن أية معاني، معتبرين ذلك معتقداً باطلاً ولا جدوى منه، ويقارنون تلك العادة بعادة استنطاق الأحلام أو خطوط اليد السديمية... إنهم يوافقون على أن مخترعي الكتابة قد قلدوا الرموز الطبيعية الخمسة والعشرين، لكنهم يؤكدون أن هذا التطبيق عرضي وأن الكتب لا تعني شيئاً في ذاتها. وهذا الرأي، كما سنرى، ليس خادعاً تماماً).

خلال زمن طويل ساد الاعتقاد بأن هذه الكتب المستعصية تطابق لغات منسية أو غابرة. صحيح أن أشد الناس قِدماً، وهم أوائل الكتبيين، كانوا يستعملون لغة مخالفة بما فيه الكفاية للغة التي نتحدثها الآن؛ وصحيح كذلك أن اللغة بعد بضعة أميال يميناً تصير لهجة، وأنها، بعد تسعين رُفاً إلى أعلا، تصير متعذرة الفهم. أُكَرر أن كل ذلك صحيح. بيد أن أربعمائة وعشر صفحات من م ص د لا يدخلها التغيير أَمْرٌ لا يمكن أن يطابق أية لغة مهما كانت دارجة أو بدائية. لقد لَمَّح البعض إلى أن كل حرف يمكن أن يؤثر في الحرف التالي وأن قيمة م ص د في السطر الثالث من صفحة 71 ليست ذات القيمة التي يمكن أن تكون لنفس السلسلة في وضع آخر، من صفحة أخرى. بيد أن هذه الأطروحة المبهمة لم تزدهر. وظن آخرون بأن الأمر يتعلق بكتابات سرية. وقد أصبح هذا التكهن مقبولاً عالمياً، وإن في معنى مخالف للمعنى الذي صاغه مكتشفوه.

منذ خمسمائة عام، وضع رئيس مسدس زوايا عالٍ[2] يَدَهُ على كتاب مبهم كغيره، غير أنه كان يتوفر على صفحتين تقريباً من أسطر منسجمة. وعرض وِجَادته على فكّاك خطوط متجول، فقال له بأن الصفحتين كتبتا بالبرتغالية؛ وقال آخرون إنهما كُتِبَتَا باليدِيَّة. لم يكد يمر قرن حتى تمت معرفة اللسان الصحيح : كان الأمر يتعلق بلهجة سَامَوِيَّة ـ لِيتْوَانِيَّة من

2) من قبل كان هناك رجل في كل ثلاث مسدسات الزوايا. غير أن الانتحار والأمراض الرئوية حطمت هذا المعدل. فمن ذكريات حزن يعجز عنه الوصف أنني حدث وسافرت ليالي وليالي عبر دهاليز وسلالم مصقولة فلم ألتق كتبياً واحداً.

لهجات الكواراني بها إمالاتٌ من العربية الفصحى. كما تم التعرف على المحتوى، فإذا هو مفاهيم تحليل تركيبي مُوضّحة بأمثلة متغيرات ذات تكرار لا حصر له. لقد مكنت هذه الأمثلة أحد الكتبيين العباقرة من اكتشاف القانون الأساسي للمكتبة، فلاحظ هذا المفكر بأن كل الكتب، مهما اختلفت، تتضمن عناصر متساوية : الفضاء، والنقطة، والفاصلة، وأحرف الأبجدية الاثنين والعشرين. كما ذكر واقعة أكّدها كل المسافرين : وهي أنه لا يوجد، في المكتبة الشاسعة، كتابان متشابهان. ومن هذه المقدمات التي لا تقبل الجدل استنتج بأن المكتبة شاملة، وأن أرففها تختزن جميع التركيبات الممكن استخلاصها من العشرين ونيف من الرموز الكتابية (وهو عدد، على سعته، ليس غير متناه)، أي كل ما يمكن التعبير عنه، في جميع اللغات. كل شيء : التاريخ المفصّل لما سيأتي، وأو طوبيوغرافيات رؤساء الملائكة، وفهرس المكتبة الأمين، والآلاف المؤلفة من الفهارس الكاذبة، والبرهنة على زيف هذه الفهارس، والبرهنة على زيف الفهرس الحقيقي، وإنجيل بَاسِيلِيدِيسْ الغنوصي، والتعليق على هذا الإنجيل، وتعليق التعليق على هذا الإنجيل، والسرد الحقيقي لموتك، وترجمة كل كتاب إلى جميع اللغات، وحشر كل كتاب في جميع الكتب.

عندما أُعلن بأن المكتبة تتضمن كل الكتب، كان رد الفعل الأول سعادة شاذة. وشَعَر جميع الناس بأنهم سادة كنز خفي لم يُمسّ. فلم يكن هناك من مشكل شخصي أو عالمي لا وجود لحله البليغ في مكان ما : في مسدس زوايا ما. لقد وجد الكون نفسه مبرّراً، فاغتصب على حين غرة أبعاد الرجاء التي لا حدود لها. في ذلك الزمن، تم الحديث بكثرة عن «البراءات» : وهي كتب دفاع ونبوءة تبرر إلى الأبد أفعال كل إنسان في الكون، وتحتفظ لمستقبله بأسرار عجيبة. آلاف من الجشعين غادروا مسدس زوايا مسقط رؤوسهم الوديع، ووثبوا على السلالم الصّاعدة إلى أعلى، مدفوعين بغرض وهمي هو العثور على براءتهم. تنازع هؤلاء الحجاج في الدهاليز، وتلفظوا بلعنات غامضة، وتشاجروا فيما بينهم داخل السلالم الإلهية، وقذفوا الكتب الخادعة إلى أعماق الأنفاق ثم هلكوا وقد رمى بهم إلى الهاوية رجال النواحي النائية. أما آخرون ففقدوا صوابهم... إن البراءات موجودة (ولقد رأيت منها براءتين تتعلقان بشخصين مستقبلين، أو شخصين لعلهما غير متخيلين)، غير أن الباحِثِينَ عنها لا يتذكرون أن احتمال عثور الإنسان على براءته، أو على رواية خادعة منها، يعادل الصفر.

كان المؤمل حينئذ إضاءة الخفايا الأساس للبشرية أيضاً : أصل المكتبة وأصل الزمن. إنه من المحتمل أن يكون بالإمكان شرح هذه الخفايا الخطيرة بواسطة الكلمات : فإذا لم

تكن لغة الفلاسفة كافيةً، لغدا بمستطاع المكتبة المتعددة الأشكال أن تنتج اللغة المطلوبة التي لم يُسْمَعْ بها، مع مفردات تلك اللغة وطرق إعرابها. لقد مضت أربعة قرون، والناس يذرعون مسدسات الزوايا... هناك باحثون رسميون، قضاة التحقيق. رأيتهم يمارسون مهامهم : فهم يَصِلُون دوماً متعبين؛ يتحدثون عن سلم دون أدراج كاد يدق أعناقهم؛ ويتحدثون إلى الكتبي عن الأروقة والدهاليز؛ وفي بعض الأحيان يأخذون أقرب الكتب إليهم ويتصفحونه بحثاً عن كلمات شائنة. ومن الواضح أن أحداً لم يكن يأمل أن يكتشف شيئاً.

كما هو طبيعي، حل محل الأمل المنفلت كآبة مفرطة. فاليقين بأن رُفّاما في مسدس زوايا ما ينطوي على كتب نادرة، وأن هذه الكتب النادرة يتعذر الوصول إليها، بدا أمراً يكاد لا يطاق. اقترحت طائفة مجدِّفة وقف عمليات البحث وقيام كل الرجال بخلط الأحرف بالرموز إلى أن يتم التوصل، بواسطة هبة من الحظ بعيدة الاحتمال، إلى إقامة هذه الكتب الأصولية. ووجدت السلطات نفسها مضطرة إلى إصدار أوامر مشدِّدة. لقد اختفت الطائفة، بيد أني رأيت في طفولتي شيوخاً يختفون لأمد طويل في المراحيض يحملون أقراصاً معدنية صغيرة في قاع دلاء صغيرة محظورة، ويقلدون الفوضى الإلهية بصوت خافت.

واعتقد آخرون، خلافاً لذلك، أن الأساسيَّ محوُ الكتب غيرُ الصالحة. لقد اجتاحوا مسدسات الزوايا، وهم يعرضون تصاريح ليست زائفة دوماً، فتصفحوا بملل مجلداً ثم حَرَّموا أرففاً كاملة : إلى هؤلاء وإلى هيجانهم التطهيري، والزهدي، يرجع سبب الضياع الأخرق لملايين الأسفار. إن اسمهم ممقوت، غير أن الذين يبكون على «الكنوز» التي أبيدت بواسطة سعارهم يهملون واقعتين بارزتين. الأولى : أن المكتبة هائلة إلى درجة أن كل بتر من مصدر إنساني لا يمكن أن يكون إلا متناهي الصغر. والثانية : كل نسخة فريدة، لا تعوض، لكن (بما أن المكتبة شاملة) هناك دائماً مئات الآلاف من نسخ طبق الأصل ناقصة، ولا تختلف عن الكتاب التام إلا بحرف أو بفاصلة. وخلافاً للرأي العام، أجرؤ أن افترض بأن عواقب الإهدار الذي اقترفه المطهِّرون قد بولغ فيها بسبب الرعب الذي أثاره هؤلاء المتعصِّبون. لقد كانوا مسكونين بهذيان غزو كتب «مسدس الزوايا القرمزي» : وهي كتب من حجم أصغر من الأحجام الطبيعية؛ جبارة، مزينة بالرسوم وساحرة.

إننا نعرف أيضاً معتقداً باطلاً آخر من تلك العصور : هو معتقد إنسان الكتاب. لقد علّل الناس بأنه فوق رف ما، في مسدس زوايا ما، لا بد أن يوجد كتاب هو عدد كل الكتب الأخرى، وملخصها الكامل : تصفحه كتبي فوجده نظير إله. ولا تزال في لغة هذه المنطقة

آثار عبادة مُحِضَ بها هذا الموظف الغابر. لقد حج الكثيرون بحثاً عنه، وطيلة قرن ضربوا في مختلف الاتجاهات دون جدوى. فكيف يمكن تعيين مسدس الزوايا السري والمبجَّلِ الذي يستضيفه ؟ اقترح منهج تنازلي : فلتعيين مكان الكتاب (أ) يجب مقدماً فحص الكتاب (ب) الذي يشير إلى مكان (أ)؛ ولتعيين مكان الكتاب (ب)، ينبغي مقدماً فحص الكتاب (ج)، وهكذا إلى ما لا نهاية... في مغامرات شبيهة بتلك أتلفتْ قواي، واستنفدت أعوامي. وإنه لا يبدو لي بعيداً عن الاحتمال أن يكون هذا الكتاب الشامل[3] في رفٍّ ما من رفوف الكون؛ وإني لأرجو الآلهة المتجاهَلة أن يكون إنسان ـ حتى لو كان إنساناً واحداً فقط، منذ آلاف السنين ! ـ قد فحصه أو قرأه . وإذا لم يكن الشرف والحكمة والسعادة من نصيبي، فلتكن من نصيب آخرين. ولتوجد الجنة، حتى لو كان مكاني الجحيم. وليكن حظي الإهانة والإبادة، على أن تُبرَّر مكتبتُكَ الهائلة في لحظة واحدة وكائن واحد.

يؤكد الزنادقة أن اللا معنى هو القاعدة في المكتبة، وأن المعقول (وحتى الانسجام المتواضع والخالص) يكاد يكون استثناء معجزا. يتحدثون (وأعلم ذلك) عن «المكتبة المحمومة التي تتعرض أسفارها المشئومة لخطر لا ينقطع، هو خطر التحول إلى غيرها، وأن كل شيء تؤكده وتنفيه وتخلطه مثل ألوهية في حالة هذيان». إن هذه الكلمات، التي لا تدين الفوضى فحسب وإنما تجعل منها أسوة أيضاً، تبرهن بشكل بارز على وجود ذوق مقيت، وجهالة لا شفاء منها. والواقع أن المكتبة تتضمن فعلاً كل البنيات اللفظية، وكل التنويعات التي تسمح بها الرموز الكتابية الخمسة والعشرون. لكن لا يوجد هراء مطلق واحد. وإنه من النافل ملاحظة أن أفضل الأسفار من بين العديد من مسدسات الزوايا التي أديرها تحمل عناوين من قبيل : «رعد متأنق» أو «تشنج الجص» أو « Axaxaxas mlö ». وهذه الجمل، التي تبدو غير منسجمة للوهلة الأولى، تستحق ولا ريب تبريراً رمزياً أو أليغورياً؛ وبما أن هذا التبرير لفظي فهو، ex hypothesi، موجود سلفاً في المكتبة. إنه ليس بإمكاني أن أركِّب بضعة أحرف مثل :

د هـ ص م ر ل ض ط د ج

دون أن تكون المكتبة توقعت ذلك التركيب، ودون أن ينطوي، في إحدى لغاتها السرية، على معنى رهيب. لا يستطيع امرؤ أن يتلفظ بمقطع صوتي لا يكون طافحاً بالحنان

3) أكرر : يكفي أن يكون الكتاب قابلاً للتصور حتى يكون موجوداً. أما المستحيل تصوره فهو المستثنى. مثلاً : ليس هناك كتاب يكون سُلَّماً أيضاً، مع أنه توجد كتب ولا ريب تناقش هذه الإمكانية فتنفيها أو تبرهن عليها أو كتب أخرى لبنيتها علاقة ما بينية سلم.

والمخاوف، أو لا يكون، في إحدىهذه اللغات، الإسم القوي لأحد الآلهة. أن نتحدث معناه أن نرتكب تحصيل الحاصل. وهذه الرسالة اللا مجدية والمهنارة توجد مسبقاً في أحد الأسفار الثلاثين الموجودة بالأرفف الخمسة من إحدى مسدسات الزوايا العديدة ـ كما يوجد ما يفندها أيضاً (يستعمل عدد n من اللغات الممكنة نفس المفردات؛ ويستوعب رمز «مكتبة»، في بعض تلك اللغات، التعريفَ المضبوطَ التالي : «منظومة من أروقة مسدسة الزوايا كلية الحضور وأبدية». لكن «مكتبةً» «خبزٌ» أو «هرم» أو أي شيء آخر، والكلمات السبع التي تعرفها لها قيمة أخرى. فياقارئي، هل أنت على يقين من فهم لغتي ؟).

إن الكتابة المنهجية تشغلني عن قدر البشر الحالي. واليقين بأن كل شيء قد كُتِبَ يمحونا أو يجعل منا أشباحاً. أعرف مقاطعات يسجد فيها شباب للكتب ويضعون بوحشيةٍ قُبلاً على صفحاتها، دون أن يكونوا قادرين على فك حرف واحد منها. لقد أهلكت السكانَ الأوبئةُ، والخلافاتُ الهرطوقية، وعمليات الحج التي تتدهور إلى مستوى التلصص. وأعتقد أني ذكرت الانتحارات، التي يزداد عددها كل عام. ربما ضللتني الشيخوخة أو الخوف، لكني أشك في أن يكون النوع الإنساني ـ الوحيد ـ قد أوشك على الاضمحلال، بينما تستمر المكتبة : مضاءةً، وحيدة، ولا متناهية، قارة تماماً، ومسلحة بأسفار نادرة، غير مجدية، وعفيفة، وسرية.

لقد كتبت : لا متناهية. وأنا لم أحشُر هذا النعت بسبب تدريب بلاغي، بل لأقول بأنه ليس من غير المنطقي التفكير في أن العالم غير متناهٍ. فالذين اعتبروه محدوداً يسلمون بأن الدهاليز والسلالم ومسدسات الزوايا يمكن أن تنتهي ـ وذلك عبث. أما الذين اعتبروه دون حدود فينسون أن عدد الكتب الممكنة ليس دون حدود. إنني أجرؤ على الإيعاز بهذا الحل للمشكل القديم : إن المكتبة لا حد لها ودوريةٌ. فلو أن مسافراً خالداً يعبرها في أي اتجاه لتأكّد، بعد مرور قرون، بأن نَفْسَ الأسفار تتكرر دائماً على نفس الوتيرة من الفوضى (التي، حينما تتكرر، تغدو نظاماً : هو النظام). إن وحدتي تتعزى بهذا الأمل الأنيق.[4]

1941، مَارْ دِيلْ بْلاَطا

4) لاحظت لِيتِيثْيَا ألْبَارِيثْ دِي طُولِدُو أن المكتبة الشاسعة لا طائل وراءها : بالضبط يكفي سِفْر واحد، من حجم عادي، مطبوع بحروف من بنط 9 أو 10، ويتضمن عدداً لا متناهياً من أوراق لا حدّ لدقتها (في بداية القرن السابع عشر، كان كَابَالِيرِي يرى في كل جسم صلب تراكب عدد غير متناهٍ من الأسطح). غير أن استعمال هذا «المختصر» الحريري لن يكون مريحاً : فكل صفحة ظاهرة فيه ستتفسخ إلى صفحات مماثلة؛ ولن يكون للصفحة الوسطى المتعذرة التصور قفا.

حَديقَة السُّبُل المُتَشَعِّبة

مهداة إلى ڤيكتوريا أوكَامپُو

في صفحة 22 من كتاب «تاريخ الحرب الأوربية» لـ (لِيدَلْ هَارْتْ)، نقرأ أن هجوماً لثلاث عشرة فرقة بريطانية (مدعمة بألف وأربعمائة قطعة مدفعية) على خط سِرْ ـ مُونْطُوبَانْ كان مقدَّراً أن يقع في 24 يوليو1916 ثم أُجِّلَ إلى صبيحة التاسع والعشرين منه. ويلاحظ لِيدَلْ هارْتْ أن هذا التأخير ـ الذي من المؤكّد أنه لم يَكن ذا دلالة ـ أحدثته الأمطار الطوفانية. ويُلقِي التصريح التالي، الذي حَرَّره، وأعاد قراءته، ووقَّع عليه الدكتور يُوتْسَانْ (وهو أستاذ سابق للغة الإنجليزية في الـ Hochschule بتْسِيْنكْطَاوْ) ضوءاً لا شك فيه على هذه المسألة. إن الصفحتين الأوليين منه، ناقصتان.

«...وأعدت السماعة. وبعد ذلك مباشرة، تعرفت على الصوت الذي أجاب بالألمانية. كان صوتَ القبطان رِيتْشَارد مَادَنْ. إن وجود مَادَنْ، في شقة ڤيكتور رُونِبيرْكْ، يعني نهاية همومنا وكذلك حياتينا ـ وإن كان هذا بدا لي ثانوياً جدّاً أو كان يجب أن يبدو لي كذلك. كان ذلك يعني أن رُونِبيرْكْ قد اعتُقل أو اغْتِيل.[1] ومن المحتمل أن أُلاقي نفس المصير، قبل مغيب شمس هذا اليوم. لقد كان مَادَنْ لا يرحم أو من الأفضل القوْل بأنه كان مرغماً أن يكون غير رحيم. فكيف، وهو الإيرلندي الذي يعمل تحت إمْرَةِ إنجلترا، والمتَّهم بالفتور وربما بالخيانة، لا يغتنم هذه الفرصة ويعترف بجميل هذه الهبة المعجزة : اكتشاف، واعتقال، وربما إعدام عميلين للا مبراطورية الألمانية ؟. صعدت إلى غرفتي، وأغلقت الباب بالمفتاح عبثاً،

1) وهنا افتراض حقود وبذيء. فقد اعتدى الجاسوس البروسي هانْز رَابِينِيرْ، المدعو فِيكْتُورْ رُونِبيرْكْ، على حامل الأمر بالاعتقال، القبطان رِيتْشَارْدْ مَادَنْ، بمسدس أوتوماتيكي، الأمر الذي اضطر معه هذا الأخير إلى إحداث جروح بالجاسوس أدت إلى موته (ملاحظة النّاشر).

ثم ألقيت بظهري على السرير الحديدي الضيق. وكانت في النافذة سطوحُ كل يوم، وشمسُ السادسة المضببة. ولقد بدا لي متعذرَ التصديق أن يكون هذا اليوم ـ الذي لا نُذُر به ولا رموز ـ يومَ موتي القاسي. هل سأموتُ الآن ؟ رغم موت أبي، ورغم كوني كنت طفلاً في حديقة متناظرة بهَايْ فِنْكْ. بعد ذلك فكرت أن كل ما يحدث للمرء، يحدث بالضبط الآن. قرون وقرون والوقائع لا تحدث إلا في الحاضر فقط؛ رجال لا حصر لهم في الأجواء، وعلى الأرض والبحر، وكل ما يقع فعلاً هو ما يقع لي... ومحا هذه التهويمات ذكرى لا تطاق لوجه مَادَنْ الشبيه بوجه الفرس. وفكرت، وسط حقدي وارتعابي (ليس يهمني الحديث، في الوقت الحاضر، عن الرعب : الآن وقد خدعت ريتشارد مَادَنْ، والآن وقد اشتاقت حنجرتي إلى الحبل)، بأن هذا المحارب الصاخب، السعيد ولا ريب، لم يكن يشك في أنني أملك السر : إسم المكان المحدد للمخزن الجديد للمدفعية البريطانية على نهر الأنْكُر. وخدش السماء الرمادية طائر، فترجمته بصورة عشوائية إلى طائرة، وترجمت هذه إلى عدد كبير من الطائرات (في سماء فرنسا) يمحق مخزن المدفعية بواسطة قنابل عمودية. آه لو استطاع فمي، قبل أن تقصفه رصاصة، الصراخَ بذلك الإسم حتى يُسمع في ألمانيا... لقد كان صوتي البشري بالغ الفقر، والضعف. فكيف يمكن إيصاله إلى أُذُن الرئيس ؟. أُذُن ذلك الرجل المريض والحقود، الذي لا يعرف عن رُونِيبِرْكْ وعنّي سوى أننا كنا في سُطَافُورْدْشِيرْ، وأنه ينتظر أخبارنا دون جدوى في مكتبه القاحل ببرلين، وهو يفحص الصّحف دونما نهاية... قلت بجهارة : يجب أن أفر. استقمت دون ضجة، وفي صمت كامل لا طائل وراءه، كما لو كان مَادَنْ قد أخذ فعلاً يترصّدني. وحفزني أمر ما ـ لعله رغبة خالصة في أن أؤكد لنفسي علانية بأن ثرواتي غدت صفراً ـ إلى فحص جيوبي، فوجدت بها ما كنت أعلم أنني واجده : ساعتي الأمريكية، وسلسلتها المصنوعة من معدن أبيض، والقطعة النقدية المربعة، وصرة المفاتيح التي تضم مفاتيح شقة رُونِيبِرْكْ المثيرة للشبهة ولا جدوى منها، ودفتري، ورسالة كنت قررت إتلافها (ولم أتلفها)، وكورونة واحدة وشِلِنَيْنِ اثنين وبعض البِنْسَات، وقلمي الأحمر ـ الأزرق، ومنديلي، ومسدسي المشحون برصاصة واحدة. أشهرته. عبثاً ورجحتُه بيدي حتى يشحنني بالشجاعة. وفكرت على نحو مبهم بأنه من الممكن سماع طلقة مسدس عن بعد. ولم تكد تمضي عشر دقائق حتى كان مخططي قد استوى. ومنحني دليل الهاتف اسم الشخصية الوحيدة القادرة على نقل الخ. : كانت تقطن بضاحية فَانْتُونْ، التي تبعد مسافة نصف ساعة أو أقل بالقطار.

أنا جبان. أقول هذا الآن، الآن وقد أنجزتُ مخططاً لن يصفه امرؤ بأنه مخاطرة. أعرف أن تنفيذ هذا المخطط كان رهيباً، بيد أني لم أفعل ذلك في سبيل ألمانيا، كلاّ. فليس يهمني بلدٌ متبربرٌ أرغمني على مَعَرَّة أن أكون جاسوساً. فضلاً عن ذلك كنت أعرف رجلا من إنكلترا ـ متواضعاً ـ لم يكن أقل درجة من غَوتْ لدي. لم أتحدث إليه أكثر من ساعة لكنه، خلال تلك الساعة، كان غَوتْ... إنما فعلت ذلك لأنني شعُرت بأن الرئيس كان يخشى قليلاً رجال سلالتي ـ ذلك العدد اللامتناهي من الأسلاف الذين يمتزجون فيَّ. كنت أريد أن أؤكّد له بأن رجلاً أصفر يستطيع إنقاذ جيوشه. فضلاً عن ذلك، كان عليَّ أن أفر من قبضة القبطان. فيداه وصوته يمكن أن تدق بَابِي بين آونة وأخرى. ارتديت ملابسي دون ضجة، وودعت نفسي في المرآة، ونزلت، وفحصت الشارع الهادئ، ثم خرجت. لم تكن المحطة بعيدة عن مقر سكناي، بيد أني قدرت أنه من الأفضل أن أستقل عربة زاعماً أنني، على هذا النحو، سأكون أقلّ تعرضاً لخطر التعرف عليّ. والواقع أن المرور من شارع مقفر سيجعلني مرئياً وعطوباً بشكل لا حصر له. أتذكر أنني قلت للسائق أن يتوقف قبل المدخل الرئيسي قليلاً. وهناك نزلت بتباطؤ مقصود ويكاد يكون مضنياً : كنت ذاهباً إلى قرية أشْكُرُوفْ غير أني ابتعت تذكرةً لمحطة أبعد. كان القطار سينطلق بعد بضع دقائق، أي في الثامنة وخمسين دقيقة. تعجلت، فقد كان القطار التالي ينطلق في التاسعة ونصف. لم يكن على الرّصيف من أحد تقريباً. مررت بالعربات : أتذكر بعض الفلاحين، وامرأة تلبس الحداد، وشاباً يقرأ باستغراق «حوليات» تَاسِيتْ، وجندياً جريحاً وسعيداً. أقلعت العربات أخيراً. وجرى رجل. تعرفت عليه، إلى منتهى الرصيف، دون جدوى : كان القبطان مَادَنْ، فتكورت، مرتعشاً ومنهكاً، في الطرف الآخر للمقعد بعيداً عن الزجاج المخوف.

وانتقلت من هذا الإنهاك إلى سعادة تكاد تكون مذمومة. وقلت لنفسي بأن المبارزة قد استُهلت، وأنني فُزت بالجولة الأُولى حين راوغت، ولو لمدة أربعين دقيقة، ولو بفضل الحظ، هجومَ خصمي. وزعمت أن هذا النصر الضئيل يجسّد مسبقاً النّصر الشّامل. ثم زعمت أنه لم يكن نصراً ضئيلاً إذ لولا ذلك الفرق الثمين الذي منحني إياه توقيت القطارين لكنت الآن في السجن أو ميتاً. كما زعمت (بسفسطة ليست أقل من مثيلتيها) أن سعادتي الجبانة تبرهن على أنني رجل سيحسن إنهاء المغامرة. واستخلصت من هذا الضعف قوى لم تفارقني. أتوقع أن الإنسان سيستسلم كل يوم لمهام متزايدة الفظاعة، وعما قريب لن يكون هناك غير المحاربين وقطاع الطرق. إنني أقدم لهم النصيحة التالية : على منفذ مهمة فظيعة أن يتخيل أنه أنجزها؛

وعليه أن يفرض على نفسه مستقبلاً متعذر التغيير كالماضي. لقد تصرفت على هذا النحو، بينما عيناي، عينا الرجل الذي قضى نحبه، تسجلان انصرامَ ذلك النهار الذي لعله النهار الأخير، وانتشارَ الليل. كان القطار يسير الهوينى بين نباتات الدَّرْدَار، ثم توقف، في قلب البادية تقريباً. لم يصرخ أحد باسم المحطة. سألت بعض الأطفال على الرصيف : «هل هي آشكَروف ؟» فأجابوا : «آشكَروف». ونزلت.

مصباح واحد كان يزين الرصيف، بيد أن وجوه الأطفال بقيت في مجال العتمة. وسألني أحدهم : «هل أنت ذاهب إلى منزل البروفيسور ستيفن أَلْبِيرْ ؟». ودون انتظار الإجابة، قال آخر : «المنزل بعيد عن هنا، غير أنك لن تضل السبيل إذا ما اتخذت هذا الطريق يساراً، وإذا ما انعطفت يساراً عند كل مفترق طريق». قذفت إليهم بقطعة نقدية (كانت الأخيرة)، ونزلت بضع درجات من حجر ثم دلفت إلى الطريق المتوحِّد. وكان هذا ينحدر بيُسر. كان من تربة أولية؛ وكانت الأغصان، من فوق، تتشابك بينما بدا قرص القمر المنخضُ والمستدير وهو يرافقني.

وفكرت هنيهة أن ريتشارد مَادَنْ قد تغلغل إلى مخططي على نحو ما. ثم أدركت بسرعة أن ذلك مستحيل. وذكّرتني النصيحة بالانعطاف دوماً إلى اليسار بأن النسق المشترك لاكتشاف الفِناء الأوسط لبعض المتاهات هو من ذلك القبيل. كنت أفقه شيئاً في مسألة المتاهات هذه، فليس عبثاً أن أكون الحفيد المتأخِّر لتْسُوي پينْ الذي كان حاكم خُونَانْ فتخلى عن السلطة الزمنية ليكتب رواية كان من المفترض أن تكون أكثر اكتظاظاً من «Hung lu Meng»، ولبناء متاهة يضل فيها كل الناس. لقد خصص ثلاث عشرة سنة لهذين الجهدين المتعارضين، بيد أن يد أجنبي اغتالته وكانت روايته خرقاء ولم يعثر على المتاهة أحد. وأخذت أتأمل، تحت أشجار إنجليزية، تلك المتاهة الضائعة : تخيلتها لم تُغتصب بل كاملةً في قمة جبل سرية، كما تخيلتها وقد محتها حقول الأرز أو هي تحت الماء؛ تخيلتها لا متناهية، لم تُؤلَّف من أكشاك مُثَمنَّة الزوايا وممرات تتكرر، وإنما من أنهار، وأقاليم، وممالك... فكرت في متاهةِ متاهاتٍ، متاهة متعرجة متنامية تحيط بالماضي والمستقبل وتقتضي الكواكب على نحو من الأنحاء. لقد نسيت، وأنا غارق في هذه الصور الوهمية، مصيري كرجل مطارد، ثم أحسست، خلال وقت غير محدد، أنني المدرك المجرد للعالم. وأثّرت فيّ البادية الغامصه والحية، والقمر، وبقايا المساء، وكذا الانحدار الذي يمحو كل تعب محتمل. كانت الأمسية حميمة، ولا متناهية، والطريق ينحدر ويتفرع داخل المراعي التي

غدت ملتبسة. موسيقى حادة، كأنها مقطعية، تقترب وتبتعد في جيئة الريح وذهابه، وقد طمستها الأوراق والمسافة. فكرت في أن الإنسان يمكن أن يكون عدو أناس آخرين، وعدو لحظات أناس آخرين، لكنه لا يمكن أن يكون عدوّ بلد؛ عدوّ الحباحب، والكلمات، والحدائق، ومجاري المياه وساعات الغروب. هكذا بلغت بوابة كبيرةً صدئة، فتبينت، من بين الشبابيك، ممشى محفوفاً بأشجار الحور ونوعاً من رواق. وللتوّ أدركْتُ أمرين، أولهما مبتذل والآخر يكاد لايصدق : كانت الموسيقى تصدر من الرواق، والموسيقى صينية؛ لذلك تقبَّلْتُهَا بامتلاء ودون أن أعيرها انتباهاً. لست أتذكر ما إذا كان هنالك ناقوسٌ أو زر أو أنني ناديت مصفّقاً بيديّ. وتواصلت خشخشة الموسيقى.

لكن فانوساً، من عمق المنزل الحميم، كان يقترب : فانوس كانت جذوع الأشجار تخدشه أحياناً، وتُلفيه أحياناً أخرى. فانوس من ورق له شكل طبل ولون القمر. وكان يحمله رجل عظيم القامة. إنني لم أتبيَّن وجهه، لأن النور كان يُعميني. وفتح البوابة ثم قال متحدثاً لغتي في بطء :

ــ أرى أن هُبي پينْكْ الرؤوف يُصِرُّ على التخفيف من وحدتي. لاريب أنكم تريدون مشاهدة الحديقة ؟

تعرفتُ على اسم أحد قناصلنا. وأعدت وأنا في حيرة من أمري :

ــ الحديقة ؟

ــ الحديقة ذات السبل المتشعِّبة.

واعتمل شيءٌ في ذكراي، فتلفظت باطمئنان غير مفهوم :

ــ حديقة سلفي تْسُوي پينْ.

ــ سلفكَم ؟ سلفكَم النابه الذكر ؟ فلتتفضّلوا.

كان الطريق الرطب يتحرجل على شاكلة طرق طفولتي. وبلغنا خزانة كتب شرقية وغربية، فتعرفت، مُستَفِرةً في حرير أصفر، على بعض الأجزاء المخطوطة من «الموسوعة المفقودة» التي كان يديرها الإمبراطور الثالث من «الأسرة المالكة المضيئة» والتي لم تقدَّم قط للطبع. وكانت أسطوانة الحاكي تدور بجوار أبي هول من نحاس. أتذكّر كذلك مزهرية عظيمةً من العائلة الوردية وأخرى، أقدم ببضعة قرون، ذات اللون الأزرق الذي حاكى فيه حروفيُّونا الفخاريين الفرس...

كان سْتِيفَنْ ألبِيرْ يراقبني مبتسماً. لقد كـان (كمـا قلت من قبل) طـويلاً جـداً، ذا ملامح مرهفـة وعينين رمـاديتين ولحيـة رمـاديـة. وكـان يتـوفر على بعض خصـائص الراهب، وكـذا خصائص البحار؛ ولقد روى لي فيما بعـدُ أنـه عمل مبشراً في تْيَـانْتْسِينْ «قبل أن أطمح في أن أكون مختصاً بالشؤون الصينية».

جلسنا، أنا في ديوان واسع وواطئ، وهو مديراً ظهره إلى النـافـذة وإلى سـاعـة دائريـة سامقة. وقدرت أن مطاردي رِيتْشَارْدْ مَادنْ لن يصل قبل ساعة، وأن عزمي الـذي لارجعـة فيـه يمكن أن ينتظر. وقال سْتِيفَنْ ألبِيرْ :

ــ لكم كان مُغرباً مصيرُ تْسُوي پينْ. كـان حـاكم المنطقـة التي ولـد بهـا، وفقيهـاً في علم الفلـك، وعلم التنجيم، وفي الترجمـة التي لا تعرف الكلـل للكتب الأصـوليـة، ولاعبـاً للشطرنج، وشاعراً مشهوراًوخطاطاً : ثم هجر كل ذلك ليؤلف كتاباً ويبني متـاهـةً. تنـازل عن ملذات القمع، والعدل، والفراش المتعدد، والولائم، وحتى الفقه، واعتزل خلال ثلاث عشرة سنـة في «جنـاح العزلـة الشفـافـة». وعنـد موتـه، لم يجـد الورثـة غير مخطـوطـات سـديميـة.ولستم تجلهون، ولا ريب، أن عائلته أرادت أن تمحض النار ذلك الميراث : بيـد أن مُنفِّـذ الوصيـة - وهو راهب طاوي أو بوذي - ألح في أن يعمل على نشره.

أجبت :

ــ ولا زال الرجال من سلالـة تْسُوي پينْ يمقتون ذلـك الراهب. فقـد كـان الطبعُ عملاً أخرق. والكتـابُ كومـة حـائرة من مسودات متنـاقضـة. ولقـد فحصتـه مرة فوجـدت أن البطل يموت في الفصل الثالث، ليكون حياً في الفصل الذي يليه. أما فيما يتعلق بمهمـة تْسُوي پينْ الأخرى، متاهته...

قال، مشيراً إلى مكتب مبرنق :

ــ ها هي المتاهة.

وهتفتُ :

ــ متاهة من عاج ! متاهةٌ مصغَّرة...

فصحَّحَ :

ــ متاهة رموز، متاهة زمنٍ غيرُ مرئية. لقد مُنِحْتُ، أنا الإنجليزي المتبربر، مهمة كشف هذا السر الشفاف. إنه من المتعذر استرجاع التفاصيل بعد مضي أزيد من مائة سنـة، لكن ليس من الصعب التكهن بما حدث. ينبغي أن يكون تْسُوي پينْ قد قال ذات يوم : سأعتزل لتأليف

كتاب. ثم قال في يوم آخر : سأعتزل لبناء متاهة. وظن الجميع أن هنالك عملين، ولم يتخيل أحد أن الكتاب والمتاهة كانا شيئاً واحداً. لقد كان «جناح العزلة الشفافة» ينتصب وسط حديقة مشتبكة؛ وربما أوحت هذه الواقعة للناس بأن المتاهة فيزيقية. ومات تْسْوي پِنْ فلم يعثر أحد، في الأراضي الشاسعة التي كانت مِلكه، على المتاهة. غير أن الغموض المهيمن في الرواية جعلني أفترض بأن الكتاب هو المتاهة. ولقد أعطاني الحل الدقيق للمشكل أمران : أولهما، القصة الغريبة التي مفادها أن تْسْوي پِنْ أقترح على نفسه إقامة متاهة غير متناهية - بالمعنى الحرفي للكلمة. والثاني، مقطع من رسالة عثرت عليها.

وقف ألْبير وأدار لي ظهره خلال بضع لحظات ففتح درجاً في المكتب المذهب والمسود. ثم عاد يحمل ورقة كانت في الأصل قرمزية، وغدت الآن وردية، دقيقة وذات مربعات. كانت بالضبط مثالاًعلى شهرة تْسْوي پِنْ كخطاط. ولقد قرأت بحماس، ودون فهم، تلك الكلمات التي حررها رجل من أعراقي بريشة دقيقة : «أترك لمصائر متعددة (وليس للجميع) حديقتي ذات السبل المتشعبة». أعدت الورقة إلى ألْبير، فواصل حديثه :

ـــ قبل النبش عن هذه الرسالة، كنت قد تساءلت كيف يمكن لكتاب أن يكون غير متناه. ولم أخمن نسقاً آخر غير نسقِ سِفْرٍ دوري، دائري. سِفْر تكون صفحته الأخيرة مطابقة للأُولى، مع إمكانية الاستمرار إلى ما لا نهاية. تذكرت كذلك تلك الليلة الموجودة وسط «ألف ليلة وليلة»، حيث تعمد الملكة شهرزاد (عن طريق شرود الناسخ شروداً سحريا) إلى حكاية قصة الألف ليلة وليلة نصّاً، مع مجازفة الوصول مجدداً إلى نفس الليلة التي تحكي فيها تلك القصة، وهكذا إلى ما لا نهاية. لقد تخيلت أيضاً كتاباً أفلاطونياً، ورائياً، ينقل خلفاً عن سلف، وحيث يضيف كل فرد جديد أو يُصَحِّحُ، بعناية تقية، فصلاً أو صفحة تركها أسلافه الكبار. شغلتني هذه التكهنات، بيد أن واحداً منهالم يَبْدُ مطابقاً، حتى من بعيد، لفصول تْسْوي پِنْ المتناقضة. وبينما أنا في خضم هذه الحيرة، توصلت من أوكْسْفُوردْ بالمخطوط الذي فحصتَه. بطبيعة الحال، توقفت عند عبارة : «أترك لمصائر متعددة (وليس للجميع) حديقتي ذات السبل المتشعبة». فهمت المراد تَوّاً، إن لم أبالغ : فأما «الحديقة ذات السبل المتشعبة» فهي الرواية السديمية؛ وأما جملة «مصائر متعددة (وليس للجميع)» فقد أوحت إليّ بصورة التفرُّع في الزمن، لا في المكان. ولقد أثبتت لي قراءة أخرى، عامة، للكتاب صحة هذه النظرية. فالمعروف في القصص كافة أنه كلما عرضت إمكانات مختلفة، تبنى الإنسان أحدها وألغى غيره؛ أما في قصة تْسْوي پِنْ المتعذرة الحل تقريباً، فإنه يتبنى الإمكانات جميعاً في

ذات الوقت. هكذا «خَلَقَ» مصائر متعددة، وأزمنة متباينة، تتكاثر وتتشعب. من هنا نشأت تناقضات الرواية. فلنقل بأن فَانْكْ يطوي أحشاءه على سر؛ ويدق بابه مجهول، فيقرّر فانْكْ قتلَه. هناك، بطبيعة الحال، حلول متعددة ممكنة : إن فَانْكْ يمكن أن يقتل الدخيل، والدخيل يمكن أن يقتل فَانْكْ، ويمكن للرجلين أن ينجوا معاً، ويمكن أن يموت كلاهما، الخ. أما في كتاب تْسُوي پينْ فإن جميع الحلول تقع؛ وكل حل يشكل نقطة انطلاق تفرعات أخرى. وفي بعض الأحيان، تتلاقى سبل هذه المتاهة : مثلاً إنكم تصلون إلى منزلي، فتكونون في أحد المواضي الممكنة عدواً لي، وفي ماضٍ آخر صديقاً. فإذا قبلتم طريقةَ تلفُّظي التي لاشفاء منها، قرأنا معاً بضع صفحات.

لا ريب أن وجهه، في دائرة المصباح الحية، كان وجه عجوز، وإن كان يتوفر على شيء ما وطيد، بل غير فان. قرأ بدقة بطيئة إنشاءين لفصل ملحمي واحد. في الإنشاء الأول، يسير جيش إلى المعركة عبر جبل مُقْفِر : ويدفعه رعب الأحجار والظل إلى احتقار الحياة فيظفر بالنصر بسهولة. وفي الثاني، يعبر نفس الجيش قصراً يقام به احتفال؛ وتبدو له المعركة المتألقة استمراراً للاحتفال فيظفر بالنصر. انصتُّ بوقار صادق إلى هذه القصص القديمة، التي ربما كانت أقل روعة من كون دمي تصورها، وأن رجلاً من إمبراطورية نائية أعادها إليَّ خلال مغامرة يائسة في جزيرة غربية. مازلت أتذكر كلمات الختام، التي تتكرر في كل إنشاء، مثل وصية سرية : «هكذا قاتل الأبطال، فانقادوا للقتال والموت والقلب رائع ومطمئن، والسيف عنيف».

منذ تلك اللحظة، شعرت من حولي وفي ظلمات جسدي بتجمهر غير مرئي، ومتعذر اللمس. لم يكن تجمهر الجيوش المتخالفة، والمتوازية، والمتحالفة في النهاية. وإنما هو اضطراب أشد تعذراً، وأشد صميمية، تجسده تلك الجيوش مقدّماً على نحو ما. وواصل سْتِيفِنْ أَلْبيرْ :

ـــ لست أعتقد بأن سلفكم الذائع الصيت قد عمل على التلاعب بالمتغيرات لأمر باطل. ولا أقضي باحتمال أن يكون قد ضحى بثلاث عشرة سنة من عمره في سبيل إنجاز لا متناهٍ لتجربة بلاغية. إنّ الرواية، في بلدكم، نوعٌ تابع؛ وخلال ذلك الوقت كانت نوعاً مستهاناً به. لقد كان تْسُوي پينْ روائياً عبقرياً، بيد أنه كان أيضاً رجل آداب لا يعتبر نفسه، دون شك، مجرد روائي. وتؤكد شهادة معاصريه ـ كما تؤكد حياته أيضاً ـ أذواقه الميتافزيقية، والصوفية، ومن البيّن أن الجدال الفلسفي يستبد بجزء هام من روايته. إنني أعلم أنه من بين جميع المشاكل التي شغلته لم يُقْلِقه مشكل، ولم يسبب له العناء، قدر مشكل

الزمن العميق. حسناً، إن هذا هو المشكل الوحيد الذي لا يتجلى في صفحات «الحديقة»، بل إن الكاتب لا يستعمل حتى الكلمة التي تعني الزمن. فكيف تفسّرون هذا الرأي الإرادي ؟

اقترحت حلولاً عديدة، وكانت جميعها غير مرضية. ناقشناها سوية؛ وفي الأخير، قال لي سْتِيفْنْ أَلْبِيرْ :

ـــ ما الكلمة التي يُحْظَر ذكرها في أحجية موضوعها لعبة الشطرنج ؟

فكرت لحظة وأجبت :

ـــ كلمة شطرنج.

قال أَلْبِيرْ :

ـــ بالضبط. إن «حديقة السبل المتشعبة» هي أحجية هائلة أو مثلّ موضوعه الزمن؛ وهذا السبب الخفي هو ما منع سلفكم من ذكر اسمه. إن الحذف المستمر لكلمة معينة، واللجوء إلى استعارات خرقاء وتلميحات بديهية، قد يكون أبلغ طريقة للإشارة إلى تلك الكلمة. إنها الطريقة الملتوية التي اختارها تْسُوي پِينْ المنحرف في كل منعطفات روايته التي لا تكل. لقد قارنت بين مئات المخطوطات، وصححت الأخطاء التي أدرجها إهمال النُسّاخ، وتكهنت بمخطط هذا السديم، فأعدت النظام الأولي إلى نصابه (أو اعتقدت أنني أعدت)، وترجمت الكتاب برمته : لاحظت أن النص لا يستعمل كلمة زمن إطلاقاً. وتفسير ذلك جلي. إن «حديقة السبل المتشعبة» هي صورة ناقصة ـ وإن لم تكن زائفة ـ للكون كما تصوره ـ تْسُوي پِينْ. فخلافاً لنْيُوتَنْ وشُوپِنْهَاوَرْ، لم يكن سلفكم يعتقد بوجود زمن متسق، ومطلق، بل كان يعتقد بوجود سلاسل لا حصر لها من الأزمان، في شكل شبكة متنامية ومتعرجة من أزمان متفارقة، ومتلاقية، ومتوازية. وسداةُ هذه الأزمنة، في تقاربها وتفرعها وتقاطعها وتجاهل بعضها بعضاً خلال قرون، تنطوي على جميع الاحتمالات. إننا لا نوجد في أكثرية هذه الأزمنة؛ قد توجدون أنتم في بعضها ولا أوجد، وأوجد في غيرها ولا توجدون؛ وقد نوجد كلانا في بعضها الآخر. في هذا الزمن الأخير، الذي أتاحه لي حظ مناسب، تصلون أنتم إلى منزلي؛ وتجدونني في آخر، وأنتم تعبرون الحديقة، مقتولاً؛ وفي زمن آخر أقول عين هذه الكلمات، لكنني أكون خطأ أو شبحاً.

وتلفظت، ليس دونما ارتعاشة :

ـــ في جميعها، أقدّر إعادة خلقكم لحديقة تْسُوي پِينْ، وأشكركم.

همس هو مبتسماً :

ـــ ليس فيها جميعاً. فالزمن يتفرع دون توقف صوب مصائر لاحصر لها. وفي أحدها أكون عدواً.

شعرت مجدداً بذلك التجمهر الذي تحدثت عنه. وبدا لي أن الحديقة الرطبة التي تحيط بالمنزل كانت مشبعة إلى ما لا نهاية بشخصيات لا تُرى. وهذه الشخصيات كانت أَلْبِيرْ وأنا، وقد غدونا سِرِّيين، منهمكين، ومتعدّدي الأشكال في أبعاد أخرى للزمن. رفعت بصري فتلاشى الكابوس الخفيف. وكان هنالك في الحديقة السوداء والصفراء رجل واحد؛ بيد أن هذا الرجل كان قوياً مثل تمثال، وكان هذا الرجل يتقدّم في الممر، وكان القبطان رِيتْشَارْدُ مَادَنْ.

ـــ الآتي غدا موجوداً، بيد أنّي صديقك. هل أستطيع فحص الرسالة مُجدّداً ؟

نهض أَلْبِيرْ. كان طويلاً يفتح درج المكتب الطويل، فأعطاني ظهره لحظة. كنت قد هيأت مسدسي. أطلقت الرصاصة بحرص بالغ : وانهار أَلْبِيرْ حيناً دون شكوى واحدة. أُقسم أن موته كان في لمح البصر : صعقةً.

أما ما عدا ذلك فكان غير واقعي، ولا دلالة له. أقتحم المكان مَادَنْ، واعتقلني. وحُكم علي بالشنق. لقد انتصرتُ بشناعة : أبلغت بَرْلِينْ بالاسم السري للمدينة التي يجب عليهم مهاجمتها. ولقد تمت قَنْبَلَتُها أمس : قرأت ذلك في نفس الصحف التي قدّمت لإنجلترا لُغْزَ موت العالم المتخصص في الشؤون الصينية، سْتِيفْنْ أَلْبِيرْ، مغتالاً من طرف نكرة، يدعى يُوتْسَنْ. وفك الرئيس شفرة ذلك اللغز. إنه يعرف أن مشكلتي تتلخص في الإشارة (خلال جلبة الحرب) إلى المدينة التي تسمى أَلْبِيرْ، وأنني لم أجد وسيلة أخرى غير قتل رجل يحمل نفس الاسم. لكنه لا يعرف (ولا أحد يستطيع أن يعرف) ندمي ومللي اللذين لاَ يُحْصَيَان».

الصبّاغُ المقنّع، حكيمُ مَرْو

مهداة إلى أنخيليكا أوكامْپُو

مَالمْ أخطئ، فإن المصادر الأصلية للأخبار المتعلقة بـالمقنّع، نبيّ خراسـان، تتلخص في أربعة :

أ) المقاطع التي حافظ عليها البَلاَذُري من «تاريخ الخلفاء».

ب) «مختصر العملاق» أو «كتـاب التحقيـق والتنقيـح» لمـؤرخ العبـاسيّين الرسمي ابن أبي طَيْر طَرْفُورْ.

جـ) المخطوط العربي المُعَنْون «مَحْق الوردة»، حيث يتم دحض البِـدَع المستنكرة في كتـاب «الوردة المظلمة» أو «الوردة الخفية» ـ الذي يشكل الكتابَ القانوني للنبيّ.

د) بعض القِطَع النقدية التي لا رسم عليها، والتي أخرجها من أرماسِهـا المهنـدس أنـدْرو سُوفْ عند إحدى عمليات فك القطار عابر القزوين. لقد حُفظت هذه القطع النقـديـة في ديوان النقود بطهران، وهي تتضمن أبياتاً شعرية فارسيـة تُلخّص وتُصحّح فقرات معينـة من كتـاب «المحْق». إن الوردة الأصلية ضاعت، أما المخطوط الذي عُثر عليـه سنـة1899، ونَشَرَتْـهُ الـ Morgenländi sches Archiv ليس دونمـا تسرُّع، فـاعتبرَهُ هُـوِرْنْ ثم السِّير پيرْسِي سَـايْكُسْ ملفقاً.

أمـا شهرة النبيّ في الغرب، فيعـود الفضـل فيهـا إلى قصيـدة مـدويـة لمُـورْ، طـافحـة باشتياقات متآمر إيرلندي وتأوهاته.

الأُرجوازنة القرمزية

حوالي سنة 120 للهجرة و 736 من تاريخ الصليب، وُلد بتركستان الرجل حكيم الذي سيطلق عليه، فيما بعد، رجالُ ذلك الزمان وذلك المكان لقب المحجب. لقد كان مسقط رأسه في مدينة مَرْو القديمة، التي تنظر بساتينُها وحقولُ كرمها ومراعيها إلى الصحراء بحزن. إن منتصف النهار فيها أبيض وباهر، ما لم تعملْ على تَعْتِيمِهِ سحب من الغبار تأخذ بخناقِ الناس وتترك، فوق العناقيد المسودّة، طبقةً ضاربة إلى البياض.

نشأ حكيمُ في هذه المدينة المتعبة. وقد بلغنا أن أحد إخوة أبيه دَرَّبَهُ على مهنة الصباغة : فنّ الزنادقة، والمزورين، والمنافقين الذي أوحى إليه الحِرَمَ الأُولى من سيرته الضالة. يقول في صفحة مشهورة من كتاب «المحُق» : «وجهي من ذهب، بيد أني نقعت الأرجوان وغطّست في الليلة الثانية الصوفَ الذي لم يُحْلَجْ، وأشبعتُ في الليلة الثالثة الصوف المُعَدَّ، ولا يزال أباطرة الجزر يختصون حول هذا القميص المدمّى. هكذا أُثِمْتُ في سنوات الشباب وبدّلت الألوانَ الحقيقية للخلائق. لقد حدثني الملاك بأن الأكباش لم تكن في لون النمور، وحدثني الشيطان بأن القادر أراد أن تكون كذلك فاستغل مكري وقرمزيتي. وأعلم الآن أن الملاك والشيطان ضَلاّ عن الحق وأن جميع الألوان يعتريها الملل».

وفي سنة 146 للهجرة، اختفى حكيمُ من مسقط رأسه. وقد عُثِرَ على جرار التغطيس ودِلائِه محطمةً، كما عُثِر على سيفٍ من شيراز ومرآة من برونز.

الثّـــور

عند متم شهر شعبان، من سنة 158، كان هواء الصحراء بالغ الصفاء. وكان الرجال ينظرون إلى الغسق يستجلون هلال رمضان، الذي يعلن الشروع في الصيام. كانوا عبيداً، ومتسولين، وتجار خيول، ولصوص جمال، وجزارين يقتعدون الأرض بوقار وينتظرون العلامة من بوابة مَحَطّ قوافل على طريق مرو. كانوا ينظرون إلى الغروب،وكان لون الغروب شبيهاً بلون الرمال.

من أعماق الصحراء المدوّخة (التي تصيب شمسها بالحمى، كما يثير قمرها الذهول) رأوا ثلاث هيآت تتقدم، وقد بدت بالغة الطول. كانت الهيآتُ بشرية، وكانت الهيأة الوسطى تحمل رأس ثور. وعندما اقترب الثلاثة، رأى الرجال بأن هذا الشخص كان يرسل على وجهه قناعاً، وأن الشخصين الآخرين كانا أعميين.

وكما يحدث في حكايات ألف ليلة وليلة، استقصى أحدهم علة هذه الأعجوبة، فصرح رجل القناع : «لقد عميا، لأنهما أبصرا وجهي».

الفَهْد

يروي مسجل وقائع العباسيين أن رجل الصحراء (وكان صوته فريد المذوبة أو بدا كذلك بسبب اختلافه عن خشونة قناعه) قال للرجال بأنهم ينتظرون علامة شهر التوبة، أما هو فيبشر بعلامة أفضل : علامة حياة كلهاتوبة، وموت لاتشوبه شائبة. وأخبرهم أنه حكيمُ بنُ عثمان،وأنه، في سنة 146 للهجرة، دخل إلى منزله رجل، فبعد أن توضأ وصلّى بتر رأسه بمدية وحمله إلى السماء. وكان رأسه أمام الله محمولاً على كفِّ الرجل اليُمنى (الذي كان الملاكَ جبريل) فكلّفه بمهمة النبوءة، وعلّمه كلماتٍ بالغة القِدم بحيث يحرق ترديدها الشفاه، وسكب فيه ضياءً مجيداً لاتطيقه عيون الفانين. تلك هي علةُ القناع. وحين يؤمن كافة رجال الأرض بالقانون الجديد، سيُرفَع لهم حجاب الوجه، وسيغدو بإمكانهم عبادته دون خطر ـ مثلما تتعبده الملائكة. وبعدما أعلن حكيم مهمته، استنهض الرجالَ إلى الجهاد وإلى الشهادة اللائقة المترتبة عنه.

ورفض العبيدُ، والمتسولون، وتجارُ الخيول، ولصوصُ الجِمال، والجزّارون دعوتَه، فصرخ صوتٌ «ساحر» وصرخ آخر «دجّال».

أحضر أحدهم فهداً ـ ربما كان نسخة من تلك السلالة الهيفاء الدموية التي يتعهدها القناصون الفرس. والمؤكد أن الفهدَ حطّم قيده فتدافع الناس طلباً للنجاة خَلاَ النبيّ المقنّع ومساعديْه. وحينما عادوا، كان قد أعمى الحيوان المفترس. فسجد الرجال لحكيم، أمام العينين المضيئتين الميتتين، واعترفوا بفضيلته الباهرة.

النبيّ المحجّب

يروي المؤرخ الرسمي للعباسيين، دون حماسة كبيرة، انتصارات حكيم المحجب في خراسان. فلقد اعتنق هذا الإقليم ـ المتأثر بنكبة وصَلْبِ زعيمه الذائع الصيت ـ أعتنق بحماسة يائسة مذهب الوجه المضيء وأجزاءَ دمه وذهبَه (منذ ذلك الوقت، استبعد حكيمُ رسمه العنيفة بحجاب من حرير أبيض، رباعي العدد، مطرز بالأحجار. وحيث أن اللون الرسمي لبني العبّاس كان السواد، فقد اختارحكيم اللّون الأبيض ـ النقيض ـ للحجاب السّاتر، والرايات، والعمامات). بدأت الحملة بداية حسنة. صحيح أن أعلام الخليفة، حسب كتاب «التحقيق»،

كان النصر حليفها في كل مكان، لكن بما أن النتيجة الغالبة لهذه الانتصارات هي عزلُ قواد وهجرُ قلاع حصينة، فإن القارئ اللبيب يدرك بماذا يعتدُّ. في نهاية شهر رجب من سنة 161، فتحت مدينةُ نِيسَابُورُ الشهيرةُ أبوابها المعدنية للمقنَّع؛ وفعلت أسْطَرَابَادُ نظير ذلك سنة 162. وكان السلوك العسكري لحكيم (كما هو شأن نبيّ آخر أعظم حظوة) يقتصر على التضرع بصوت صادح، لكنه يرتفع إلى الله من فوق ظهر ناقة شهباء، في قلب المعارك المهتاج. وكانت السهام تَصْفِر فيما حوله، دون أن تصيبه بأذى على الإطلاق. لقد كان يبدو وكأنه يبحث عن الخطر : فذات ليلة، طاف بعض المجذومين المهانين بقصره، فأمرهم بالمثول بين يديه، وقبّل أعطافهم، ووهبهم فضّةً وذهباً.

فوض أعباء الحكم إلى ستة أو سبعة من تابيعه، وشرع يُديمُ النظر في التأمل والسلام : لقد كان حريم مؤلف من 114 امرأة ضريرةٍ يحاول إخماد حاجات جسده الربّاني.

المرايا الفظيعة

ما لم تكن كلماتهم ناقضة للإيمان السُّني، فإن الإسلام كان متسامحاً إزاء ظهور خِلاّن الله المقربين، مهما كانوا متهورين أو متوعّدين. وما كان للنبيّ، بالأحرى، أن يحتقر أفضال هذه الأنفة، غير أن أنصاره، وانتصاراته، والغضب العلني للخليفة ـ الذي كان محمداً المهدي ـ، كل ذلك دفع به إلى البدعة. لقد دمَّره هذا الشقاق، بيد أنه أتاح له، قبل ذلك، تحديدَ بنود دينٍ شخصي، لا يخلو من تأثيرات بديهية مصدرها ما قبل التاريخ الغنوصي.

في مبدإ نشأة الكون، لدى حكيم، يوجد رب شبح. وقد عَدِم هذا الرب الأصلَ بجلال، كما عَدِم الاسمَ والوجهَ. إنه رب لا يتزحزح عن مكانه، بيد أن صورتَه ألقت بسبعة ظلال زيّنت بلطفها السماء الأولى وقامت عليها. وصدر عن هذا الإكليل الرباني الأول إكليل ثانٍ، ذو ملائكة وأرواح عاملة وعروش، فأسس هؤلاء سماء أخرى أشد دنواً هي المضاعِف المناسب للسماء الأولى. تناسخ هذا المجمع الثاني في ثالث، وهذا في رابع أدنى، وهكذا إلى غاية 999. إن سيد سماء الأعماق، ظل ظلال أخرى، هو من يباشر الحكم، ويميل حظُّه من الألوهية إلى الصِّفر.

إن الأرض التي نسكنها خطأ، ومحاكاة ساخرة لاتنم عن مهارة. والمرايا والأبوة مظهران فظيعان لكونهما يضاعفانها ويؤكدانها. والفضيلة الأساسية التّقزّز. وهناك مذهبان (ترك النبيّ للناس حريةَ الاختيار بينهما) يمكن أن يقودانا إليها : الزهد أو الانكباب على الشهوات، ممارسة حاجيات الجسد أو التعفف عنها.

وليست جنة حكيم ولا جحيمه بأقل من ذلك يأساً. ورد في لعنةٍ تمّت المحافظة عليها من كتاب «الوردة الخفية» : «إنني أُعِدّ الذين لا يؤمنون بالكلمة، وينكرون الوجة والحجابَ الموشى بالجواهر ـ أعدهم جحيماً عجيباً، إذ سَيَمَلّكَ كل واحد منهم على 999 إمبراطورية من نار، في كل إمبراطورية 999 جبلاً من نار، وفي كل جبل 999 برجاً من نار، وفي كل برج 999 طابقاً من نار، وفي كل طابق 999 فراشاً من نار، وفي كل فراش سيكون الموعودُ صحبة 999 شكلاً من نار (يتشكل فيها وجهه وصوته) تقوم بتعذيبه إلى ما شاء الله». ويؤكد النبيّ في مكان آخر : «ستعانون في هذه الحياة داخل جسم واحد، وعند الموت والجزاء داخل أجسام لاحصر لها». أما الجنة فأقل وضوحاً. «بها ليل دائم وأحواض من حجر. والسعادة في هذه الجنة هي السعادة المميزة للحظات الوداع، والرفض؛ سعادة من يعلمون أنهم نائمون».

الوَجْـه

في السنة 163 للهجرة، والخامسة من تاريخ الوجه المضيء، حوصر حكيم في مدينة صَنَم من طرف جيش الخليفة. لم يتوقف الزاد، ولا تناقص عدد الشهداء. وكان الناس ينتظرون نجدةً وشيكةً من زمرة ملائكة من نور. كانوا على هذه الحال عندما طافت بالقصر إشاعة مريعة. فقد حُكي أن بغياً من الحريم، قبل أن تُخمِد أنفاسَها من طرف الخصيان، صرخت بأن اليد اليمنى للنبيّ ينقصها البِنْصَر وأن الأصابع الأخرى لليد لا أظافر فيها، فانتشرت الإشاعة بين المؤمنين. وكان حكيم، في شرفة مرتفعة تحت وهج الشمس، يلتمس من الإله الأليف نصراً أو علامةً، عندما جاء ضابطان منكسي الرأس، ذليلين ـ كما لو كانا يصارعان مطراً ـ فاقتلعا منه الحجاب المطرز بالأحجار.

في البداية حدثت رجّة. ذلك أن وجْهَ الرسول الموعود، وجهَه الذي كان في السماوات، كان في الحقيقة أبيض، لكن بلون ذلك البياض الخاص بالبرص المبقّع. كان الوجه منتفخاً انتفاخاً لا يُصدّق، إلى حد أنه بدا للرجلين أشبه بقناع. لم تكن له حواجب، وكانت الجفن السفلى للعين اليمنى تتدلى على الخد الشائخ، وعنقود ثقيل من الصديد يلتهم شفتيه. أما الأنف اللا إنسانية والفطساء فكانت أشبه بمنخر سبع.

وحاول صوت حكيم إنجاز خدعةٍ أخيرة، فشرع يقول : «إن إثمكم المريع يمنعكم من التملّي بضيائي..».

لم يستمع إليه الرجلان، واخترقاهُ بالرماح.

الانتظار

تركته السيارة عند رقم أربعة وأربعة آلاف، في ذلك الشارع الشمالي الغربي. لم تكن الساعة قد دقت التاسعة صباحاً. ولاحظ الرجل باستحسان أشجار الموز الملطخة، والمربع الترابي عند جذع كل واحدة منها. والمنازل المتواضعة ذات الشرفة الصغيرة، والصيدلية المجاورة، ومعيني دكان الصباغة ودكان الأدوات الحديدية الباهتين. وكان جدار مستشفى طويل ولا منفذ فيه يسد الطريق المقابل، والشمس تلتمع، بعيداً، فوق بعض الدفيئات. وفكر الرجل أن هذه الأشياء (التي تبدو الآن اعتباطية وطارئة وفي نظام ما، مثل تلك التي تتجلى في الحلم) ستصير مع الوقت، إن شاء الله، قارة وضرورية ومستأنسة. على زجاج الصيدلية يمكن قراءة اسم (بريسلاور) مكتوبا بأحرف خزفية : لقد كان اليهود يحلون محل الطليان، الذين حلوا محل الكريول. وهذا أفضل، فالرجل لم يكن يفضل معاشرة قوم من عرقه.

ساعده السائق على إنزال الصندوق، وفتحت امرأة الباب في النهاية، وهي تبدو منشغلة البال أو متعبة. ورد له السائق من مقعده إحدى القطع النقدية، وهي أوروغوية من فئة عشرين سنتيماً بقيت في جيبه منذ تلك الليلة في الفندق لدى «ميلو».. فسلم له الرجل أربعين سنتيماً، وفكر لتوه : «من الواجب علي أن أتصرف على نحو يجعل الجميع ينساني. لقد ارتكبت خطأين : أعطيت قطعة نقدية تنتمي إلى بلد آخر، وجعلت البعض يظن أن الخطأ يهمني».

وعبر الصوان والبهو الأول، تتبعه المرأة. وكانت الحجرة التي حجزت له تطل، لحسن الحظ، على البهو الثاني. كان السّرير من حديد، شوهه المزخرفون بمنحنيات غريبة، تصور أغصاناً وجفون كرم. وكان هنالك، أيضاً، خزانة ملابس من خشب الصنوبر، وطاولة يوضع

عليها مصباح، ورف كتب على مستوى الأرض، ومقعدان غير زوجين، ومغسل بطشته وجرته وآنية صابونه، وقنينة ذات زجاج مكدر. وكانت خارطة لإقليم بوينوس آيريس وصليب يزينان الحائط، بينما كان الورق الذي يغطيه قرمزيا، عليه رسوم طواويس متكررة، أذيالها مشرعة. أما الباب الوحيد فكان يطل على البهو، وكان من الضروري تغيير وضع المقعدين حتى يفسح مجال للصندوق. واستحسن المستأجر كل شيء، وعندما سألته المرأة عن اسمه قال : ثييباري، ليس كتحد سري، ولا للتخفيف من إهانة لم يكن، حقا، يشعر بها، وإنما لأن هذا الاسم كان يعتمل فيه، ولأنه كان من المستحيل عليه التفكير في غيره. ومن المؤكد أنه لم يستهوه الخطأ الأدبي من تخيل أن ادعاء اسم الخصم يمكن أن يكون حيلة.

في البداية لم يكن السيد ثييباري يغادر المنزل، وحينما مضت بضعة أسابيع شرع في الخروج، هنيهة، عندما يحل الظلام. ودخل ذات ليلة إلى قاعة سينما توجد على بعد ثلاثة مباني سكنية. لم يتعد أبدا الصف الأخير، وكان ينهض دائما قبل قليل من نهاية العرض. شاهد قصص أوباش مأساوية، وكانت هذه تنطوي، حتما، على أخطاء كانت تتضن، دون شك، صوراً هي أيضا صور حياته السالفة. ولم يلاحظ ثييباري ذلك لأن فكرة التصادف بين الفن والواقع كانت غريبة عنه. وحاول بوداعة أن تعجبه الأشياء، بل أراد أن يسبق النية التي تعرض بها عليه. وخلافا للذين قرأوا روايات، لم يكن قط يرى نفسه مثل شخصية فنية.

لم تصله رسالة أبداً، ولا حتى منشور، غير أنه كان يقرأ بأمل غير واضح المعالم أحد أبواب الجريدة اليومية. وعند المساء، كان يقرب من الباب أحد المقعدين، ويحتسي شراب الماطي بوقار، بينما تركزت عيناه في النبات الذي يتسلق جدار المنزل الملاصق المتعدد الطوابق. لقد علمته سنوات العزلة أن الأيام، في الذاكرة، تميل إلى أن تصير متشابهة، بيد أنه ليس هناك من يوم، حتى يوم السجن أو المستشفى، لا يحمل مفاجآت ولا يكون، عند السبر، شبكة من مفاجآت متناهية الصغر. لقد استسلم في عزلات أخرى إلى غواية عد الأيام والساعات، غير أن العزلة الحالية مختلفة، لأنها دون منتهى ـ عدا أن تحمل الجريدة، ذات صباح، نبأ وفاة أليخاندرو ثييباري. من الممكن كذلك أن يكون ثييباري قد مات سلفاً، وعندئذ فإن هذه الحياة لن تكون سوى حلم. كان هذا الإمكان يثير قلقه، لأنه لم يتوصل إلى أن يفهم ما إذا كان يشبه الراحة أو التعاسة. وقال في نفسه بأن ذلك عبث، فرفضه. في أيام بعيدة، وإن كانت أقل بعدا في سيرورة الوقت من فعلين أو ثلاثة لارجعة فيها، كان قد اشتهى أمورا عديدة بحب لا تشوبه شائبة، غير أن هذه الإرادة القوية، التي حركت حقد

الرجال وحب امرأة ما، لم تعد ترجو أموراً خاصة : انها تريد أن تبقى، لا أن تكون خاتمة شيء. وكان طعم العشب، وطعم التبغ الأسود، وحافة الظل المتنامية التي تزحف على البهو - كل ذلك كان حوافز كافية.

كان بالمنزل كلب من فصيلة الذئاب، عجوز، فأستأنس به ڤييـاري. كان يحدثه بالإسبانية والإيطالية وبالكلمات القليلة التي تبقت لديه من لهجة طفولته القروية. كان ڤييـاري يحاول أن يعيش في محض الحاضر، دون ذكريات أو توقعات، وكانت الأوليات أقل أهمية لديه من الأخيرات. وظن بغموض أنه حدس بأن الماضي يشكل الجوهر الذي صيغ منه الزمن، ولذا يصير ماضيا بسرعة. وشابه تعبه السعادة ذات يوم، وفي لحظات من هذا القبيل لم يكن أبلغ تعقيداً من الكلب.

ذات ليلة، تركته شحنة ألم ذاتية في عمق الفم منزعجا ومرتعشا. وعاودته المعجزة الرهيبة بعد بضع دقائق ومرة أخرى عند انفلاق الفجر.وفي اليوم التالي، أرسل ڤييـاري من يبحث له عن سيارة وضعته عند عيادة أسنان بحي أحد عشر. وهناك انتزعوا ضرسه، ولم يكن في هذه اللحظة الحرجة أكثر جبنا ولا أشد هدوءاً من أشخاص آخرين.

ذات ليلة أخرى، لدى عودته من السينما، شعر بأن البعض يدفعه. وبغيظ، وغضب، وارتياح، جابه المعتدي، وبصق عليه شتيمة بذيئة، فتمتم الآخر، منذهشاً، باعتذار. كان رجلاً طويل القامة، شاباً، ذا شعر غامق وبصحبته امرأة هيأتها ألمانية. وردد ڤييـاري لنفسه، تلك الليلة أنه لايعرفهما، ومع ذلك، فقد مضت أربعة أيام وخمسة قبل أن يخرج إلى الشارع.

وكان بين كتب الرف نسخة من «الكوميديا الإلهية»، مع تعليق قديم عليها كتبه أندريولي، فتصدى ڤييـاري لقراءة هذا الكتاب الأساسي مدفوعا بشعور بالواجب أكثر منه بحب الاستطلاع. قبل الأكل كان يقرأ نشيدا وبعد ذلك الملاحظات في نظام صارم. ولم يقض بأن عقوبات الجحيم غير ممكنة أو مبالغ فيها، ولم يفكر في أن دانتي كان سيحكم عليه بالدائرة الأخيرة حيث تنهش أسنان أوغولينو، إلى مالانهاية، رقبة روجياري.

ويبدو أن طواويس الورق القرمزي كانت موجهة لتطعيم كوابيس عنيدة، بيد أن السيد ڤييـاري لم يحلم قط بفسحة عريش مرعبة صيغت من طيور حية مشتبكة. ففي الاسحار كان يرى حلما ذا عمق واحد وظروف متنوعة. يدخل رجلان صحبة ڤييـاري وهم يحملون مسدسات إلى الحجرة، أو يعتدون عليه لدى خروجه من السينما، أو كانوا، ثلاثتهم في وقت واحد، الرجل الغريب الذي دهسه، أو ينتظرونه بحزن في البهو ويبدو أنهم لايعرفونه، وفي نهاية

الحلم، يخرج المسدس من درج الطاولة الملاصقة التي عليها المصباح (وبالفعل كان يخفي في ذلك الدرج مسدسا) ثم يفرغه على الرجال. يوقظه دوي السلاح، لكن الأمر كان دائما حلما وفي حلم آخر يتكرر الهجوم وفي حلم آخر كان عليه أن يعود إلى قتلهم.

في صباح كدر من شهر يوليو، أيقظه حضور غريبين (وليس ضجيج الباب حين فتحاها). كانا طويلين في عتمة الحجرة، مبسطين فيها بشكل يثير الفضول (وكانوا دائما في أحلام الخوف أشد وضوحا)، يقظين، ثابتين، صبورين، عيونهما حاسرة كما لو أن ثقل الأسلحة أحناها : لقد أدركه اليخاندرو ڤييياري أخيرا صحبة رجل غريب. وبإشارة طلب منهما أن يتمهلا. ثم التف في مواجهة الحائط كما لو كان يسترجع الحلم. هل فعل ذلك لاستدرار الشفقة ممن قتلاه، أم لأن تحمل حدث مرعب، أقل قسوة من تصوره واستبقائه إلى مالانهاية، أم (وهذا، ربما، هو أكثر التخمينات احتمالا) لكي يكون القاتلان حلما مثلما كاناه مرات من قبل، في نفس المكان، ونفس الساعة ؟

وكان في خضم هذا السحر عندما محقته شحنة الرصاص.

الظّاهِـر

«الظاهر» في بُوينُوسُ آيْرِيسُ قطعة نقديةٌ شائعةٌ، من فئة عشرين سنتاً؛ محت آثار مدّية أو مبراة حرفي النون والتاء والرقم اثنين؛ والتاريخُ المنقوشُ على صفحة وجهها هو 1929. (في أواخر القرن الثامن عشر، كان أحد النمور، بكُوتِيَرَاتْ، يدعى الظاهر؛ ويطلق الإسم ذاته على أعمى مسجد سُورَاكَارْطا، بِجَاوَا، الذي رجمه المصلون؛ وعلى اصطرلاب، بفارس، أمر نَادِرْ شَاهْ بإلقائه في البحر؛ وعلى بوصلةٍ صغيرة، مَسَّها رُودُولْفْ كَارْلْ فُونْ سْلاَتِينْ، بسجون المهدي حوالي سنة 1892، ملفوفةً في مِزْقَةِ عمامة؛ وعلى عَصَبٍ من رخام يوجد، حسب زوتينبركْ، في واحد من أعمدة جامع قرطبة البالغ عددها ألفاً ومائتين؛ وعلى قاع البئر في مَلاَّح تطوان). اليوم هو الثالث عشر من نفمبر؛ وفي اليوم السابع من يونيو، عند الفجر، وقع الظاهر في يدي. إنني لم أعد من كنته إذ ذاك، بيد أني أستطيع أن أتذكر ما جرى، وقد أرويه. فما زلت بُورْخِيسْ، وإن بصفة جزئية.

توفيت تُيُودِيلِينَا ڤييارْ في السادس من يونيو. وحوالي سنة 1930، كانت صورها تخنق المجلات الشعبية؛ ولعل هذه الغزارة ساهمت في أن تعتبر المرأة بالغة الجمال، وإن لم تكن كل الصور لتدعم هذه الفرضية دون شروط. فيما عدا ذلك، كانت تُيُودِيلِينَاڤِييَارْ تهتم بالكمال أكثر من اهتمامها بالجمال. لقد قَنَّن العبرانيون والصينيون سائر الأوضاع البشرية؛ هكذا نقرأ في «المِشْنَاه» بأنه كلما استهل غروب السبت فإن خياطاً ما كان له أن يخرج إلى الشارع وفي يده إبرة؛ كما نقرأ في «كتاب الطقوس» أن الضيف، عندما يتقبّل الكأس الأولى، يجب أن يتقمص هيأة جادة، وحينما يتقبل الثانية، عليه أن يتقمص هيأة سعادةٍ وقورة. نظير ذلك، وإن بدقة أكبر، ما تستلزمه تُيُودِيلِينَاڤِييَارْ من صرامة. كانت تنشد، شأنها في ذلك شأن مُرِيدِ

كونفوشيوسي أو شأن تلمودي، الصواب الذي لاشية فيه لكل فعل. بيد أن شغلها الشاغل كان أكثر إثارة للإعجاب وأشد وعورة، لأن قواعدَ معتقدها لم تكن أبديةً، وإنما تنثني حسب أهواء باريس أو هوليود. تُبرز تُيُودِيلِينَا ڤِييَارْ نفسها في أماكن مضبوطة، في وقت مضبوط، وبخصال مضبوطة، وفتور مضبوط. بيد أن الفتورَ والخصالَ والوقتَ والأماكنَ كان يعتريها التقادم مباشرة على وجه التقريب فتغدو صالحة (على لسان تُيُو دِيلِينَا ڤِييَارْ) لتعريف المتكلِّف. لقد كانت تبحث عنَ المطلق، شأن فْلُوبِيرْ، ولكنه المطلق فيما هو آنيٌّ عابر. وكانت حياتها نموذجيةً، بيد أنه مما لا ريب فيه أن يأساً باطنيا كان يتأكَّلها. جربت مسوخات متواصلةً، كما لو هرباً من ذاتها؛ فكان لونُ شعرها وكذا أشكالُ تصفيفه مشهورةً بعدم الاستقرار. كذلك كانت تتغير الابتسامةُ، والسحنةُ، ووجهةُ العينين. ومنذ 1932، غدت نحيلةً على نحو مُضْنٍ... ثم وهبتها الحربُ الكثيرَ مما تنشغلُ به. كان الألمان قد احتلوا بَارِيسْ، فكيف يمكن متابعة تقلبات الموضة ؟. وسمح أجنبي لنفسه، لم تكن هي لتمحضه ثقتها، أن يستغل طيبوبتها فباعها حصةً من قبعاتٍ أسطوانية؛ وفي نفس السنة، أشيع بأن هذه الأشياءَ الشنيعةَ لم تُلبس في باريس قط، وتبعاً لذلك فهي ليست قبعات وإنما نزوات اعتباطية وغير مشروعة. إن البلايا لا تأتي فرادى؛ فقد اضطر الدكتور ڤِييَارْ للانتقال إلى شارع أَرَاوُتْ، وزينت صورة ابنته إعلانات الدُّهون والسيارات (الدهون التي ما أكثر ما استعملتها، والسيارات التي لم تعد تملكها بعد). كانت تدرك أن ممارسةً لائقة لفنها تتطلب ثروةً طائلة؛ ففضلت الانسحاب مستسلمة. وفضلاً عن ذلك، كان يوجعها أن تتنافس وفتيات غريرات تافهات. ثم تبين أن شقة أَرَاوُتْ المشئومة باهظة التكاليف : ففي السادس من يونيو، ارتكبت تُيُودِيلِينَا خطل الموت في قلب «الحي الجنوبي». فهل أعترف أنني، بدافع من أصدق شغف أرجنتيني هو الخيلاء، كنت مغرماً بها وأن موتها مَسَّني إلى حد جريان الدموع ؟. لعل القارئ قد خمن ذلك.

خلال السهر إلى جانب أجداث الموتى، يعمل تقدم التعفن على أن يستعيدَ الميتُ وجوهَه السالفة. ففي مرحلة غير محددة من ليلة اليوم السادس، غدتْ تُيُودِيلِينَا ڤِييَارْ، وعلى نحو ساحر، ما كَانَتْهُ منذ عشرين عاماً؛ إذ استرجعت ملامحها السلطةَ التي يمنحها الكِبَرُ، والمال، والشبابُ، والشعورُ بتتويج هرم، ونقصانُ الخيال، وحدود الموهبة، والغباوةُ. فكرت على هذه الشاكلة أو قريباً منها : لا صيغةَ من صِيَغِ هذا الوجه، الذي كثيراً ما أقلقني، ستبقى في ذاكرتي قدر هذه الصيغة؛ وبما أنها كانت الأولى، فمن اللائق أن تكون الأخيرة. وتركتها

جامدة بين الزهور، وقد تَفَنَّنَتْ في إِتْقَانِ احتقارها للموت. كانت الساعة حوالي الثانية صباحاً عندما خرجت. وفي الخارج كانت الصفوفُ المتوقعةُ للمنازلِ الواطئةِ والبيوتِ ذات الطابق الواحد قد اكتست ذلك الجو المجرد الذي اعتادت أن تكتسيه ليلاً، عندما يهوّن من شأنها الظلُّ والصمت. هكذا مشيت وسط الشوارع، وأنا ثملٌ بشفقة تكاد تكون غير شخصية. وفي زاوية تقاطع شارعي الشّيلي وتَاكُورَايْ أبصرتُ حانوتاً مفتوحاً. ولسوء حظي، وجدتُ بالحانوت ثلاثة رجال يلعبون الورق فيغشُّ بعضهم بعضاً.

في الوجه البلاغي المدعو الاستعارة العنادية، يُوضعُ لكلمةٍ معينةٍ نعت يبدو وكأنه يناقضها؛ هكذا تحدث الغُنُوصيون عن ضوءٍ معتم، والخيميائيون عن شمس سوداء. إن خروجي من آخر زيارة لتِيُودِيلِينَاڤِييَارْ وشربي قدحاً بحانوت هو نوع من الاستعارة العنادية؛ ولقد أغوتني فظاظةُ الفعلِ وسهولتُه (وزاد من حجم التناقض وجود لاعبي الورق أولئك). طلبت قَدَحَ بْرانْدي، فكان الظَّاهِرُ بين القطع النقدية التي رُدَّت إليَّ. نظرتُ إليه برهةً ثم دلفت إلى الشارع، ولعل بي بدايةَ حمى. فكرت في أنه لا توجد قطعةٌ نقديةٌ لم تكن رمزاً لقطع نقدية لا يتوانى التماعها في التاريخ والخرافة. فكرتُ في فلس كَارُونْطِي؛ وفي الفلس الذي طلبه بِلِيسَارْيُو؛ وفي دنانير يَهُوذَا الثلاثين؛ وفي النقود الصافية لساحر «ألف ليلة وليلة»، التي غدت بعد ذلك أقراصاً من ورق؛ وفي دينار إِسْحَاقْ لاكِيدِيمْ الذي لا يتلاشى؛ وفي الستين ألف قطعة فضية (لكل بيت من أبيات الملحمةِ قطعةٌ مزجاة) التي ردها الفِرْدَوْسِي لأحد الملوك لأنها لم تكن قِطَعاً من ذهب؛ وفي الأوقية الذهبية التي أمر أَهَابْ بتسميرها في صَارٍ؛ وفي فْلُورِينْ لِيُوپُولْدْبْلُومْ المتعذر التحويل؛ وفي قطعة اللوِيسْ التي نَمَّ وجهها، قريباً من ڤَارِينْ، عن الهارب لويس السادس عشر. كما في حلم، بدت لي فكرةُ أن كلَّ عملةٍ تسمح بتوارد هذه الإيحاءاتِ النابهةِ بعيدةَ الأهمية، وإن كانت متعذرةَ الشرح. قطعت الشوارع والساحات المقفرة بسرعة متنامية، وتركني النَّصَبُ عند أحد المنعطفات. أبصرت حاجزاً حديدياً مشبكاً بأناة؛ وبعد ذلك رأيتُ بلاطات فِناء لاكُونْثِيپْثِيُونْ البيضاء والسوداء، فاكتشفت أنني همت على نحو دائري وأنني لم أكن أبعد إلاّ قليلاً عن الحانوت الذي أُعطي لي فيه الظاهر.

التفت عائداً؛ وأخبرني الثُّمنُ المعتم، على بعد، بأن الحانوت كان قد أغلق أبوابَه. امتطيت، عند شارع بِلْكْرَانُو، متن سيارة أجرة، وفكرت وأنا مؤرقٌ، مُوَسْوَسٌ، وسعيدٌ تقريباً، أنه لا يوجد ثمة شيءٌ أقل ماديةً من النقود. ذلك أن أية قطعة نقدية (فلنقل : قطعة من فئة عشرين سِنْتاً) هي، بالقوة، لائحةٌ بمصائر مُمكنةٍ : إذ يمكن أن تكون أمسية في الضواحي، أو تكون موسيقى بْرَامْزْ، أو تكون خرائط، أو تكون شطرنجاً، أو تكون قهوة، أو تكون كلمات

إبيكْتِيتْ التي تُعلِّم احتقارَ الذهب؛ إنها بُرُوتِيو أكثر تقلباً من ذلك الموجود بجزيرة فَارُوسْ. زمنٌ غيرُ متوقعٍ هي، زمن بِيرْكْسُونْ، لازمن الإسلام أو زمن الرّواقِ الصلب الثابت. إنّ الجبريين ينكرون أن توجد بالعالم واقعةٌ واحدةٌ ممكنة، id est واقعة يمكن أن تحدث أو لا تحدث؛ والقطعة النقدية ترمز إلى اختيارنا الحر (لم أكن لأرتاب في أن هذه «الأفكار» كانت زُخرفاً ضد الظاهر، كما كانت شكلاً أولياً لمَدّ شيطاني). نمت بعد تأملاتٍ عنيدةٍ، بيد أني رأيت فيما يرى النائم أنني القِطَع النقدية التي يحرسها العُقاب ـ الأسد.

في اليوم التالي قررت أني كنت ثملاً، كما عزمتُ على التخلُّص من القطعة النقدية التي ما أشد ما أقضّت مضجعي. نظرتُ إليها : لم يكن هناك ما يميزها، عدا بعض الخدوش. إن إقبارها في الحديقة أو إخفاءها في إحدى زوايا المكتبة سيكون أفضل حل، بيد أني أردت الابتعادَ عن مَدَارِهَا كلية فاخترت فقدانها. لم أذهب إلى البِيلاَرْ، ذلك الصباح، ولا إلى المقبرة؛ بل ذهبت، بواسطة المِتْرو، إلى الكُونْثِيپْثْيُونْ، ومن الكُونْثِيپْثْيُونْ إلى سَانْ خُوَانْ وبُويِيدَو. نزلتُ، دون تفكير، في أورْكِيثَا؛ ثم اتجهتُ غرباً وجنوباً؛ خلطت، بفوضى متعمدة، بين بعض المنعطفات وفي شارع بدا لي أشبه بجميع الشوارع، دخلت إلى أي حانوتٍ زَرِيٍّ، وطلبت قدحاً دفعتُ الظاهر ثمناً له. أغمضتُ عينيّ شبه إغماضةٍ وراء الزجاج المضبّب، فتمكنتُ من عدم رؤية أرقامِ المنازل أو رقم الشارع. في تلك الليلة، تناولتُ حبة فِيرُونَالْ ففشيني سباتٌ مطمئن.

حتى أواخر شهر يونيو، شغلتني مهمة تأليف حكاية خارقة. وكانت هذه تتضمن تلميحين لغزيين أو ثلاثة ـ فبدلاً من «دم» هناك «ماء السيف»، وعوض «ذهب» «مضجع الأفعى» ـ وقد كُتبت بضمير المتكلم. إن الراوي رجل زاهدٌ يتحاشى معاشرة الناس ويعيش في شبه قَفْر (اسم هذا المكان كْنِيتَاهِيدْنْ). ونظراً لبساطة حياته وسذاجتها، فقد حسبه بعضهم ملاكاً؛ وتلك مبالغة شفوقة، إذ لا يوجد إنسان دون خطيئة. وحتى لا نبحث عن أسباب قاصية، فقد ذبح هو نفسُه أباه. والحق أن هذا كان ساحراً مشهوراً تمكن، بواسطة أضاليل سحرية، من السيطرة على كنز لا حد له. وهكذا نذر زاهدنا حياته لحماية ذلكم الكنز من جنون جشع البشر؛ فحرسه النهار وقام عليه الليل. قريباً، بل ربما قريباً جداً، تنتهي هذه الحراسة : ذلك أن النجوم أنبأته بأن السيف الذي سيضع لها حداً وإلى الأبد قد تَشَكّل (وكُرَامْ هو اسم ذلك السيف). وفي أسلوب يتزايد التواؤه، يتفحص الراوي لمعانَ جسدِه ومرونته؛ وفي فقرة ما يتحدث ساهياً عن حرشفات السمك؛ وفي غير هذه الفقرة يقول بأن الكنزَ الذي يحميه

من ذهبٍ متوقدٍ ومن خواتم حمراء. ونفهم في الختام بأن الزاهد هو الأفعى فَافْنِيرْ، وأن الكنزَ الذي يجثو عليه هو كنزُ النِّيبِيلُوْنِكِيِّينْ. إن ظهور سِيكُورْدْ يقطع تسلسل القصة على نحو مباغت.

لقد قلت بأن إنجاز هذه التُّرهة (التي أدرجْتُ خلالها، بِتَفَقُّهٍ مزعوم، بيتاً من أبيات «الفَافْنِيسْمَالْ») أتاح لي فرصة نسيان القطعة النقدية. مرتْ بي ليالٍ كنت أظن فيها بثقةٍ أنني قادرٌ على نسيانها إلى درجة أنني كنت أتذكرها قصداً. والمؤكد هو أنني تعسفتُ في استعمال هذه الهنيهات، ذلك أن وضع بداية لها تجلى أسهل من إيجاد نهاية. وعبثاً كررت لنفسي بأن ذلك القرص المعدني الشائه لا يختلف عن غيره من الأقراص التي تتداولها الأيدي، فهي، جميعاً، متساويةٌ، غيرُ متناهيةٍ ولا مؤذيةٌ. حاولت، تحت تأثير هذه الفكرة، التفكير في قطعة نقدية أخرى، بيد أني لم أُفْلح. أتذكر كذلك تجربةً محبطةً قمت بها على شلنين من فئة خمسة وعشرة سنتات، وعلى قِيْنْتِينْ شرقي. وفي السادس عشر من يوليو حصلتُ على ليرة استرلينية؛ لم أنظر إليها خلال النهار، وعند تلك الليلة (وعند أخريات) وضعتُها تحت زجاج مُجْهِرٍ وفحصتُها على ضوء مصباح كهربائي ساطع. بعد ذلك رسمتُها بقلم رصاصٍ من خلال ورقة، فلم يُجْدِني نفعاً لمعانُها ولا التنينُ ولا السانْ جُورْجْ : لقد عجزت عن تغيير الفكرة المِلْحاح.

في شهر غشت، قررت استشارةَ طبيب نفساني. إنني لم أُبُحْ له بكامل قصتي المثيرة للسخرية، بل قلت بأن الأرق يعذبني وأن صورة شيء ما تتعقبني دائماً، فلنقل : قطعة نرد أو صورة قطعة نقود... إثْرَ ذلك بقليل، نقّبت في مكتبة بشارع صَارْمْيِينْطُو فعثرتُ على نسخة من كتاب « Urkunden zur Geschichte der Zahir Sage » (بريسلاو، 1899) لصاحبه يُوليوسْ بَارْلاَخْ.

ففي ذلك الكتاب وقع التصريح بدائي. لقد قرر مؤلفُه، حسب المقدمة، «أن يجمع في سِفْر مطواع، من القطع الثُّمْني الكبير، كافةَ الوثائق التي تحيل على معتقد الظاهر الباطل، بما في ذلك أربع قطع تنتمي إلى سجلات هَابِيشْتْ والمخطوط الأصلي لبيان فِيلِيبْ مِيدُوزْ طَايْلَرْ». إن الاعتقادَ في شأن الظاهر إسلاميٌّ، والراجح أن تاريخه يرجع إلى القرن الثامن عشر (وهنا يُفنِّد بَارْلاَخْ المقاطعَ التي ينسبها زُوتِينْبِرْكْ إلى أَبُو الفِدَا). وكلمة «الظاهر»، في اللغة العربية، تعني النابه والمرئي؛ وفي هذا المعنى فهو أحد التسعة وتسعين اسماً من أسماء الله. وتطلقه العامة، في أرض الإسلام، على «الكائنات أو الأشياء التي تتوفر على خصلة

رهيبة، وهي كونها متعذرة النسيان تصيب صورتُها النـاسَ بـالجنون». والشهـادةُ الأولى التي لا جدال فيهـا هي شهـادةُ الفـارسي المـدعـو لُطْف عَلِي أَتُـورْ. ففي الصفحـات ذات السنـد من الموسوعة البيوغرافية الموسومة «معبد النار»، يروي ذلك العَالِمُ المشارك والدرويشُ بـأنـه كـان يوجد في مدرسة، بشيراز، اصطرلابٌ من نحاس «قد رُكِّب على هيـأة بحيث أن من نظر إليـه مرةً فلن يفكر في شيءٍ عـداهُ. وهكـذا أمر الملـك أن يُقـذَفَ في أعمـق أعمـاق البحر حتى لا ينسى الناسَ الكون». والأكثر توسعاً من ذلك بَلاغُ مِيدُوزْ طَـايْلَرْ، الذي خدم نظـام حَيْـدَرْ آبَـادْ ووضع الروايةَ الذائعةَ الصيت « Confessions of a Thug ». فحوالي سنـة 1832، سمع طَـايْلَرْ في أرباض بُوخْ المثل الشاذ «قد رأى النمر» الذي يقال للدلالة على الجنون أو القداسة. لقد قيل له بأن المعنيَّ نمرٌ عجيبٌ كان هلاكَ كل من رآه، ولو على بعـد، لأن الجميع ظلوا يفكرون فيـه إلى نهاية أيامهم. ويقول بعضهم بأن أحد هؤلاء الأشقياء فر إلى مِيسُورْ، حيث رسم صورة النمر على جدران قصر. وحدث، سنواتٍ بعد ذلك، أن زار طَـايْلَرْ سجون تلـك المملكـة؛ وفي سجن نِيطُورْ أراهُ الحاكمُ زنزانةً على أرضيتها وحيطانها وقبتها رسم ناسكٌ مسلمٌ (بألوان بدائيـة، دَقَّقَهـا الزمنُ قبل أن يُقْدِمَ على محوها) نوعـاً من نمر لا نهـائي. لقـد صيغ هـذا النمر من عديـد من النمور، على نحـو مُـدَوِّخ؛ تخترقـه نمـور، وتُخطِّطُـه نمـور، وينطـوي على بحـار وهِمَـلاَيَـاتٍ وجيوش تبدو وكأنها نمور أخرى. توفي الرسام منذ سنوات عـديـدة، في هـذه الزنزانـة عينهـا؛ وكان قد قَـدِمَ من السِّنْـد أو لعلـه أتى من الكُوثيرات وبُغْيَتُـه الأولى أن يضع خريطـةً للعـالَم. ولا تزال آثار من تلك النِّية في الصورة الفظيعة. وقـد روى طَـايْلَرْ القصـةَ لمحمـد اليمني، من حصن وِلْيَـامْ، فـأخبرهُ هـذا الأخير بـأنـه لا يـوجـد مخلـوقٌ على ظهر البسيطـة لا يميـل إلى الـZaheer،[1] بيـد أن اللـه الرحمـان الرحيم لم يسمح بـأن يوجـد شيئـان من ذلـك في آن، إذ الشيءُ الواحدُ قَمِينٌ بأن يَفْتِنَ الحشـد الكبير. وقـال بـأن الظـاهر موجود دائمـاً وأنـه كـان في الجـاهليـة المعبودَ الـذي يـدعى يَعُوق، وبعـد ذلـك أُطلق الاسم على نبي، من خراسـان، كـان يستعمل حجاباً مرصعاً بالأحجار أو قناعاً من ذهب.[2] كما قال بأن الله متعذر السَّبر.

قرأتُ مونوغرافيةَ بَارْلاَخْ عدة مرات. لا أستطيع أن استبطن ماذا كـانت أحـاسيسي؛ إنمـا أتذكر اليأسَ الذي اعتراني عندما أدركتُ أن شيئاً لن ينجيني بعدُ، والراحةَ المتجذرةَ من جراء معرفتي بأنني لم أكن مصدر شقائي، والحسدَ الـذي خـالجني نحو أولئـك القوم الـذين لم يكن

1) على هذا النحو يكتب طَايْلَرْ الكلمة.

2) يلاحظ بَارْلاَخْ بأن يَعُوق مذكور في القرآن (71، 23) وأن النبي هو «المقنَّع» (المحجب) وأنه لا أحد، خلا مراسل فِيلِيبْ مِيدُوزْ طَايْلَرْ المدهش، لم يربطهما إلى مسألة الظاهر.

«ظاهرٌ» هُمْ قطعةٌ نقدية بل قطعةٌ من رُخام أو نمراً. وفكرت : لكم هي مهمة سهلة ألاّ أفكر في نمر. كما أتذكر القلق الفذ الذي شلني وأنا أقرأ هذه الفقرة : «يقول مُعَلِّقٌ على «كولشان إي رازْ» بأن من رأى الظاهر فسيرى «الوردة» عما قريب. ثم استشهد ببيت دَسٌّ انتحالاً في «أسرار نامه» (كتاب الأمور المجهولة) للعطار، يقول : إن الظاهر ظلٌّ «الوردة» وفَتْقَةُ «الحجاب»».

في الليلة التي سهرنا على جثمان تُيُودِيلِينَا، دُهِشْتُ لكوني لم أرَ بين الحاضرين السيدة أَبَاسْكَالْ، أختها الصغرى. وفي أكتوبر حدثتني عنها صديقةٌ لها فقالت :

ـ مسكينة خُولِيتا،[3] لقد أخذت تتصرف تصرفات بالغة الشذوذ، مما اضطرهم إلى إدخالها مصحة إلْبُوشْ. لَكَمْ تُذِيقُ الممرضات اللواتي يُطعمنها أفانينَ العذاب. إنها لا تكف عن ذكر قطعةٍ نقدية، تماماً مثلما يفعل chauffeur مُورِينَا سَاكْمَانْ.

إن الزمن، الذي يخفف من وقع الذكريات، يرفع من حدة ذكرى الظاهر. من قبلُ، كنت أتخيل وجهه ثم قفاه؛ أما الآن، فأرى كليهما في آن معاً. لا يحدث ذلك كما لو كان الظاهر من زجاج والوجه والقفا ينطبق أحدهما على الآخر؛ إنما يحدث كما لو كانت الرؤيةُ كرويةً والظاهر يرتَعُ فيها عند الوسط. إن ماعدا الظاهر يأتيني متشظياً وكما لو كان بعيداً : صورة تُيُودِيلِينَا الأبية، والألم الفيزيقي. لقد قال تِنِيسُونْ بأننا لو استطعنا فهم زهرة واحدة لعلمنا من نحن وما هو العالم. ولعله كان يريد القول بأنه لا توجد واقعةٌ، مهما يكن شأنُها حقيراً، لا تقتضي التاريخ الكوني والتسلسل اللا نهائي لعلله ومعلولاته. بل لعله كان يريد القول بأن العالم المرئي يُعطي نفسَه كاملاً في كلّ مشخص، مثلما تُقدِّم الإرادة نفسَها كاملةً، حسب شُوبِنْهَاوَرْ، في كلّ فاعلٍ. ولقد فهم القبلانيون بأن الإنسان كونٌ مُصغَّر، ومرآةٌ رمزيةٌ للكون؛ وسيصير كل شيء على ذلك المنوال، حسب تِنِيسُونْ : كل شيء، بما في ذلك الظاهر الذي لا يُطاقْ.

قبل سنة 1948، سيكون مصير خُولْيَا قد أدركني. فسيكون عليهم إطعامي وإلباسي، ولن أعرف هل الوقت مساء أم صباحاً، كما لن أعرف من كان بُورْخِيسْ. وإنه لمكر وصف هذا المصير بأنه رهيب، ما دام ظرف من ظروفه لن يوجد بالنسبة لي. والأصح القول بأن الرهيبَ ألمٌ مُبَنَّج يفتحون عظم قحفته. ها إنني لن أُحصِّل الكون، وأُحصِّل الظاهر. ترى تعاليم المذهب المثالي أن العيشَ والحلمَ فعلان مترادفان بصرامة؛ من آلاف الظواهر سأنتقل إلى

3) تصغير خُولْيَا (المترجم).

واحدة؛ ومن حلم بالغ التعقيد سأنتقل إلى حلم مفرط البساطة. سيحلم آخرون بأنني مجنون وسأحلم بالظّاهر. وحينما يفكر كافةُ أقوامِ الأرضِ، ليلاً ونهاراً، في شأن الظاهر، فأيهما يكون الحلمُ وأيهما الواقعُ : الأرض أم الظاهر ؟.

ما زلتُ أستطيع، في ساعات الليل المقفرة، المشيَ عبر الشوارع. وقد اعتاد الفجر أن يفاجئني وأنا على مَقعدٍ بساحة كَارَايْ، أفكر (أو أسعى إلى التفكير) في تلك الفقرة من «أسرار نامه» حيث يقال بأن الظّاهِرَ ظلُّ «الوردة» وفتقةُ «الحجاب». أصِلُ ذلك القولَ بهذه المعلومةِ : إن المتصوفةَ، بُغيةَ الفَنَاءِ في ذات الله، يكررون أسماءهم الخاصة أو التسعة وتسعين اسماً إلهياً إلى أن تفقد هذه الأسماء معانيها. إنني أتشوقُ إلى اجتياز هذا السبيل. فلعلني بَالغٌ أن أستنفد الظّاهِرَ من شِدةِ التفكير وإعادةِ التفكير فيه؛ ولعل وراءَ القطعةِ النقديةِ أن يكون الله.

مهداة إلى فالي ثينير

مُلْحَقَان

1. «بورخيس وأنا»

إنه للآخر، لبورخيس، من تَقَعُ الوقائع. إنني أسير خلال بُوينُوسْ ـ آيْرِيسْ، فأتوقف، لعلني بصورة آلية، لمشاهدة قوس دهليز، أو الباب المثلث المصاريع. تصلني أخبار بورخيس بواسطة البريد، وأرى اسمه في لائحة كراسي علمية أو في مُعْجَمٍ تَرَاجِم. أحب ساعات الرمل، والخرائطَ، وطباعةَ القرن الثامن عشر، وطعم القهوة، ونثر سْتِيفَنْسُونْ؛ ويشاركني الآخر هذه الميولات ولكن على نحو مغرور يجعل منها ميزات ممثل. سيكون من المبالغ فيه الادعاء بأن علاقتنا عدائية؛ فأنا أحيا، وأترك نفسي تحيا كي يستطيع بورخيس حبك أدبه، وهذا الأدب يبررني. إنه لا يضيرني شيئاً أن أعترف بأنه تمكّن من كتابة صفحات قليلةٍ قَيِّمة؛ بيد أن هذه الصفحات لاتستطيع إنقاذي، ربما لأن الجميلَ لم يعد ملكاً لأحد، بما في ذلك الآخر، وإنما هو مِلك للغة والتراث. عدا ذلك، فإن قدري الضياع، بصورة نهائية، وسوف لن يبقى في الآخر غيرُ لحظة مامِني. رويداً رويداً أتنازل له عن كل شيء، وإن كانت عادته الفَتَّانة في التزوير والتضخيم تكلفني المشقة. لقد فهم سْبِينُوزَا بأن الأشياء تريد البقاء في كينونتها، فالحجرة تريد أن تظل حجرة إلى الأبد والنمر يريد أن يبقى نمراً؛ أما أنا فعليٌّ أن أبقى في بورخيس، وليس في ذاتي (إن كنت أحدا). ومع ذلك فإنني أتعرف على نفسي في كتبه أقل مما أتعرف عليها في كتب أخرى عديدة أو في العزف المنهمك على قيثار. منذ سنوات حاولت تخليص نفسي منه، فتحولت عن أساطير الأرباض إلى التسلي بالزمن واللا متناهي. غير أن هذه التسالي غدت في مِلك بورخيس الآن، ويجدر بي أن أتخيل أموراً غيرها. هكذا حياتي هروب، وأنا أفقد كل شيء، وكل الأشياء تغدو في ملك النسيان أو في ملك الآخر.

لست أعلم أي الإثنين يكتب هذه الصفحة.

2. «نبذة بيوغرافية»

خشية من ارتكاب مفارقة تاريخية، وهي الجنحة التي لايتوقعها القانون الجنائي وإن كان حساب الاحتمالات والعرف يدينانها، سننسخ مادة من الـEnciclo pedia» Sudamericana» التي ستنشر بمدينة سانتياكو بالشيلي عام 2074. لقد حذفنا إحدى الفقرات التي يحتمل أن تعتبر جارحة، كما وسمنا بالقِدم طريقة الكتابة التي لاتتوافق، في كل الأحوال، وحاجيات القارئ المعاصر. يظهر النص على النحو التالي : «بورخيس، خورخي فرانشيسكو إيسيدُورو لويس : كاتب وعصامي من مواليد مدينة بوينوس ايريس، عاصمة الأرجنتين إذ ذاك، سنة 1899. لايُعلم تاريخ وفاته، نظرا لأن الصحف، وهي نوع أدبي ينتمي إلى تلك الحقبة، قد تلاشت خلال الصراعات الواسعة التي يرويها لنا اليوم المؤرخون الجهويون. كان أبوه أستاذاً للسيكلوجيا، وكان هو أخا لنورا بورخيس[1] وكانت ميولاته الأدب، والفلسفة، ونظرية الأخلاق. غير أن ماوصل إلينا من أعماله يخبرنا، بما فيه الكفاية، عن الميل الأول، كما يسمح لنا بملاحظة بعض النواقص التي لاشفاء منها. هكذا لم يتوصل قط إلى تثمين الآداب الناطقة بالإسبانية، رغم ممارسة طويلة لـ (كيفيدو).[2] لقد كان مواليا لأطروحة صديقه لويس روساليس القائلة بأن كاتب «أعمال پيرسيليس وسيكَيسموندا»[3] المتعذرة الشرح، ما كان له أن يكتب الـكيخوطي». عدا ذلك فإن هذه الرواية كانت إحدى الروايات القليلة التي استحقت رأفة بورخيس، بالإضافة إلى روايات ڤولتير، وستيڤنسون، وكونراد، وايسادي كيروث. كان يلتذ بسرد الحكايات، وهي خاصية تذكرنا بعبارة [پو] There is no such thing as a long poem [ليس هناك شيء يشبه قصيدة طويلة]، التي تؤكدها العادات الشعرية لبعض الأمم الشرقية. أما فيما يتعلق بالمتافيزيقا فحسبنا أن نذكر «مفتاح باروخ سپينوزا» 1975.[4] لقد حصل على كراسي الأستاذية في جامعات بونيوس آيريس، وهارفارد، وطيكساس، دون أن تكون له من شهادة رسمية غير باكالوريا مبهمة من جنيڤ، لايزال النقد يتساءل بصددها. كما كان دكتورا شرفيا Honoris Causa لجامعتي كويو وأوكسفورد. وتروي الأخبار أنه لم يكن يضع السؤال إطلاقاً أثناء الامتحانات بل يدعو التلاميذ

1) أخت بورخيس الوحيدة. رسامة موهوبة. لا تزال على قيد الحياة.
2) كاتب إسباني (1580 ـ 1645).
3) الكتاب الذي عثر عليه بين أوراق ثيرڤانتيس. وهو رواية عن القروسية التي سبق له أن سخر منها في «الكيخوطي».
4) يجب تنبيه القارئ إلى أن النص الذي بين يديه نشر سنة 1974 والكتاب المشار إليه هنا لا وجود له.

إلى اختيار جانب ما من أي موضوع ثم وضعه بعين الاعتبار، كما لم يكن يطالبهم بالتواريخ زاعما أنه ذاته كان على جهل بها. وكان يمقت البيبليوغرافيا التي تُبعد الطلاب عن المصادر.

لقد كان يسر بالانتماء إلى البرجوازية، كما يؤكد ذلك اسمه. أما طبقتا العامة والارستوقراطية، بسبب عشقهما للعب، والمال، والرياضة، والوطنية، والنجاح والدعاية، فقد كانتا تبدوان له متشابهتين تقريبا. وحوالي سنة 1960، سجل نفسه بالحزب المحافظ نظراً لأنه (حسب قوله) «(الحزب) الوحيد الذي ليس بمستطاعه، ولا ريب، أن ينجب أي تعصب».

إن الشهرة التي عرفها بورخيس طيلة حياته، والتي يؤكدها ركام من المونوغرافيات والسجالات، ماتفتأ اليوم تثير دهشتنا. ونحن لانشك في أنه كان أول من يدهش لذلك : فقد كان يرتاع دائما من أن يعتبر دجالا أو هازلا أو خليطاً فذا من كليهما. وسنحاول البحث في علل هذه الشهرة التي تبدو لنا اليوم غامضة.

بادىء ذي بدء، يجب ألا ننسى أن سنين بورخيس وافقت اضمحلال البلاد. لقد كان ينتسب إلى أرومة عسكرية، فكان يعاني من حنين إلى المصير الملحمي لأسلافه، ويعتقد بأن الشجاعة هي إحدى الفضائل النادرة التي تجدر بالرجال. بيد أن عبادته هذه قادته، كما قادت آخرين، إلى إجلال رجال الأحياء البئيسة دون روية. على هذا النحو كانت أكثر حكاياته مقروئية حكاية «رجل الزاوية الوردية» التي يقوم مجرم بدور الراوي فيها. لقد ألف كلمات ميلونكَا milonga[5] تحيي ذكرى نظرائه في الجريمة، كما تبتعث مقاطعه الشعرية الشعبية، التي تردد صدى اسكاسوبي،[6] ذكرى الطاعنين بالمُدى الذين طواهم النسيان عن حق. ولقد أملى بيوغرافية بارة لشاعر مغمور[7] مأثرته الوحيدة كانت اكتشاف الإمكانيات البلاغية للأحياء الآهلة بالسكان. إن كتاب الساينيطات[8] Saineteros قد هيأوا مسبقاً عالماً كان في الجوهر عالم بورخيس، بيد أن الجمهور المثقف ما كان له أن يستمتع بعروضهم مطمئن الضير. ولذلك سيُغفر لهذا الجمهور أنه صفق لذلك الذي جعل لذته هاته أمرا مباحا. لقد كان عمله السري، وربما غير الواعي، يتركز في حبك أسطورة لبوينوس آيريس لم توجد بتاتاً. على هذا النحو، ومع مرور الأيام، ساهم، دون دراية منه بل ودون ريبة، في عملية تهييج الهمجية التي بلغت أوجها في عبادة الكَاوتشو وأرطيكَاس ورواس.

5) شعر شعبي.
6) شاعر أرجنتني. واحد مبتكري الشعر الكَاوتشي (1807 ـ 1875).
7) هو (إيفاريسطو كاريكَو). صدرت البيوغرافية سنة 1930.
8) أغاني شعبية.

لنفحص الوجه الآخر. فرغم كتاب «القوى الغريبة» (1906) لـ (لوكونيس)،[9] كان النثر السردي الأرجنتيني يعتني، في عمومه، بالتلميح والهجاء وتسجيل العادات، وقد رفعه بورخيس، تحت وصاية قراءاته الشمالية،[10] إلى مستوى الخارق. لقد علّمه (كَروساك)[11] و (رييس)[12] تبسيط المعجم الذي كان إذ ذاك محرجا بتشويهات غريبة من قبيل : معقد، عدوانية، استلاب، بحث، توعية، توصيل، توصيلي ، مولد، جمعوي، متفاوض بشأنه، تنمية الذات، استقبال، الشعور بالوازع، الشعور بالتحقق، وضعوية، عمودوية، تعايش. ولم تبد الأكاديميات حراكاً، مع أنه كان بوسعها أن تنصح بعدم استعمال نظير هذه التوافه. أما الذين أبدوا تسامحا إزاء تلك الرطانة فقد مدحوا أسلوب بورخيس علانية.

ترى هل شعر بورخيس بالشقاق الحميم الذي ميز مصيره ؟ يمكننا أن نظن ذلك. فهو لم يكن يومن بالخيار الحر، وكان يحب ترديد عبارة كارلايل هذه : «ان التاريخ الكوني نص نحن مرغمون على قراءته وكتابته دون توقف، وحيث نكتب فيه بدورنا أيضا».

يمكن مراجعة «أعماله الكاملة» في طبعة Emecé. الصادرة ببوينوس أيريس سنة 1974[13] والتي تحذو حذو النظام الزمني بصرامة كافية».

9) عصامي وصحفي وشاعر (1874 ـ 1938).

10) إشارة إلى اهتمام بورخيس بأدب أمريكا الشمالية. وآداب أوروبا (خصوصاً الأدب الإنجليزي، والسكندنافي والألماني).

11) عمل مديرا للمكتبة الوطنية، ببوينوس أيريس، قبل بورخيس، وكان مثله أعمى.

12) كاتب مكسيكي (1889 ـ 1959) كان أحد الذين شجّعوا بورخيس في بداياته.

13) لا تتضمن هذه الطّبعة كما لا يخفى، جميع آثار بورخيس. فقد أملى، بعد سنة 1974، العديد من القصائد وبعض القصص.

فهرس

مقدمة 5
ملكان ومتاهتان 13
حكاية الحالمين 14
كتاب الرمل 16
بحث ابن رشد 21
الخرائب الدائرية 28
الآخر 33
موضوعة الخائن والبطل 41
پيير مينار، مؤلف «الكيخوطي» 45
مكتبة بابل 53
حديقة السبل المتشعبة 60
الصبّاغ المقنع، حكيم مرو 70
الانتظار 75
الظاهر 79

ملحقان :

ملحق 1 : «بورخيس وأنا» 87
ملحق 2 : «نبذة بيوغرافية» 88